الفروسية والحرب
في شعر البارودي

دكتور
طلعت عبد العزيز أبو العزم(*)

يعد وصف الخيل والفروسية [1] ووصف الجيوش وساحات الحرب والمعارك من الموضوعات المحببة الي نفسية البارودى ، فقد صدر عنها فى شعره معبرا عن تجارب ذاتية تبدو فيها نفسه على طبيعتها وسجيتها ، وتنعكس فيها حنكته كفارس شجاع ، كما تتجلى فيها خبرته الواقعية بالخيل والصيد ، والحرب والقتال . وفى مثل هذه الأشعار يفتخر البارودى بأجداده العرب الأوائل ، وبخالصهم الطيبة التى أورثها منهم ، ومنها حب الخيل والفروسية . وتموج صوره الفنية فى شعره بالحركات والألوان والأصوات ، وتفيض بكل ما يخاطب الحواس ، ويؤثر في المشاعر .

وقد جبلت نفس البارودى على حب الخير ، كخصلة طيبة من خصال الأنبياء ، كما عرف فضلها أجداده العرب القدماء « على عادتهم فى الجاهليه والإسلام ، ففيها العز والشرف ، والصبر على المخمصة واللأواء » [2] وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا عليه السلام باتخاذ الخيل – مع عناصر القوة الأخرى – لترهيب الأعداء (وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) [3] . وفضلا عن هذا فقد

(*) مدرس بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – سوهاج .

(١) فرس فراسة وفروسة وفروسية : حذق أمر الخيل وأحكم ركوبها فهو فارس بالخيل ، والفارس : الماهر فى ركوب الخيل ج : فوارس وفرسان ، والفوارس فى الجيوش : المحاربون على ظهور الخيل . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ط ٢ / دار المعارف بمصر ١٩٧٢ / ٦٨١ .

(٢) انظر : ابن الكلبى / أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها / تحقيق د. أحمد زكى الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٥ / ٦ .

– المخمصة : اسم بمعنى المجاعة . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط جـ ١ / ط ٢ / ٢٥٦ . واللأواء : ضيق المعيشة وشدة المرض . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ط ٢ / ٨١١ .

(٣) القرآن الكريم / الأنفال / ٦٠ .

ذكر الرسول الكريم عليه السلام فضل الخيل وإرتباط الخير بها الى يوم القيامة : « الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة ، وأهلها معانون عليها ، فامسحوا نواصيها وإدعوا لها بالبركة » [١] وقد أحبها داود عليه السلام ، وقيل إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام « وكانت وحشا لا تطاق ، حتى سخرت لإسماعيل » [٢] .

وقد أشربت نفس البارودى حب الخيل من خلال قراءاته فى الشعر العربى القديم ، فغدا عارفا بصفات الخيل ، ملما بأسمائها وأنسابها . ثم أتقن البارودى الفروسية وهو فى المدرسة الحربية ، وبعد أن تخرج منها وألحق بالجيش « حيث رقى الى رتبة مقدم ، وعين قائدا لفرقتين من فرق الفرسان » [٣] فازداد حبا وإعجابا ومعرفة بالخيل كعنصر من عناصر القوة فى الحرب ، كما اكتسب من فروسيته المهارة والخبرة . وظل البارودى على حبه للخيل والفروسية حتى إشترك فى المعارك الحربية التى خاضها الجيش العثمانى ، وسانده فيها الجيش المصرى ، خاصة فى حرب كريت ، والحرب الروسية التركية – حرب البلقان – اللتين أبلى فيهما الجيش المصرى بلاءاً حسنا . ومن هنا ، صدر البارودى فى شعره عن تجارب ذاتية واقعية ، التحمت فيها نفسية الفارس المحارب ، بأحاسيس الشاعر الفنان « وبون بعيد أن يستشعر الشخص معانى الفروسية عن طريق التصور والخيال ، وبين أن يستشعرها عن طريق الحقيقة والواقع » [٤] .

ويرتبط ذكر الخيل والفروسية فى شعر البارودى بذكر السيف ، فهو سلاحه الذى لا يفارقه ورمز شجاعة أجداده العرب الأوائل فى قتالهم وبسط إرادتهم على الأرض ، ومنع أعدائهم من حماهم ، ومطمحة للمجد والمعالى . ولذلك نراه يفتخر كثيرا فى شعره بنزوع قلبه الى المجد والمعالى ، ومن أجل هذا فهو يهيم حبا فى السيوف اللامعة الباسمة بفرحة النصر فى المعارك الحربية وقتال الأعداء . بل يؤكد البارودى أن حبه للأمجاد والآمال العالية شىء يميز طبيعته عن غيره من الناس ، وأن اعتلاء قمم المجد – عبر صهوات الخيل – هو غايته فى الحياة :

---

(١) ابن الكلبى / أنساب الخيل / مرجع سبق ذكره / ٩ .

(٢) انظر : ابن الكلبى / المرجع السابق / ١٢ .

(٣) انظر : د. شوقى ضيف / البارودى رائد الشعر الحديث / دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ / ٥٣ .

(٤) د. شوقى ضيف / نفسه / ٥٣ .

قلدت جيد المعالى حلية الغزل ... وقلت فى الجد ما أغنى عن الهزل
يأبى لى الغى قلب لا يميل به ... عن شرعة المجد سحر الأعين النجل
أهيم بالبيض فى الأغماد باسمة ... عن غرة النصر لا بالبيض فى الكلل
لم تلهنى عن طلاب المجد غانية ... فى لذة الصحوة ما يغنى عن الثمل
كم بين منتدب يدعو لمكرمة ... وبين معتكف يبكى على طلل
لولا التفاوت بين الخلق ما ظهرت ... مزية الفرق بين الحلى والعطل
فانهض الى صهوات المجد معتليا ... فالباز لم يأو إلا عالى القلل (١)

ولاغرو أن يكون المجد الذى طمحت اليه نفس البارودى هو مجد أجداده العرب القدماء الذين أخضعوا الزمن لإرادتهم وشجعاتهم وسيوفهم ، وحكموا الأرض فكانوا سادة أزمانهم ، بل كانوا ملتقى أفواج الناس ، فبسطوا عليهم خيرهم . ويؤكد البارودى فى هذا النص إفتخاره بقومه العرب الأوائل ، ويبدو من النغمة الحزينة التى إستولت عليه فى أخره ، أنه قد كتبه وهو فى المنفى بسرنديب ، حيث نراه يعقد مقارنة بين عظمة العرب فى الماضى ، وبين ما فعله الزمن بهم بعد ذلك . ويسقط ما حدث على حياته الراهنة ، حيث يسودها يأس يكاد يمزق ما تبقى من حياته ، لولا إيمانه بقضاء الله . ويبحث الشاعر عمن يؤنس وحدته فى غربته الموحشة ، فلا يجد سوى النكوص الى الماضى ، وخاصة ماضى أجداده العرب الحافل بالقوة التى حكمت الورى ، وتمر أمام ناظريه خيالات أمسه الغابر :

عرفت الليالى قبل معرفتى نفسى ... وشاهدت فى يومى مخائل من أمسى
وقست فميزت الأمور بغيرها ... وما المرء إلا بالتصور والحدس
أنا ابن الأولى جلوا الغيابةبالظبى (٢) ... وسدوا بأطراف القنا مطلع الشمس
تدور الليالى كيف شاءوا مطيعة ... لأمرهم فى الناس بالسعد والنحس
ترى الناس أفواجا يطوفون حولهم ... كما طاف أهل الحج بالبيت ذى الأس

(١) ديوان البارودى / حققه وصححه وضبطه وشرحه محمد شفيق معروف / دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٤ / جـ ٣ / ٦ - ١٥ .

(٢) الظبة : حد السيف والسنان والخنجر وما أشبهها (ج) ظبا ، وظبات ، وظبون . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٥٧٥ . وقد وردت الكلمة هكذا (ظبى) فى أوراق البارودى الأدبية ، ويحتمل أن محقق مجموعة البارودى الأدبية لم يتنبه اليها .

أفـــاءوا علـى الدنيـــا بوارف ظلـلهـم ودانـت لـهـم ســـيـــارة الجن والإنـس
وكـــانوا ملـوكـــا قـادرين علـى الورى فـأنسـتـهـم الأيام والدهـر قـد ينسـى
أقـامـوا وسـاروا مـثـل مـن سـار قـبـلهـم وقـد تـنـفـذ الأقـدار فـى كل ذى نـفس
فـلـولا إعـتـقـادى بالـقـضـاء وحكمـه لمـزقت أثـواب الحـيـــاة مـن الـيـــأس
ولـــكـــنـــى راض بمـــا لا أريـــده رضـاء ذليل القـوم بالـصـفـقـة الـبـخس
فـمـــا بـال مـن أمـسـى وأصـبـح قـادمـا على وحشة يبغى الزيادة فى الأنس [1]

وإكتسب البارودى من فروسيته الحقيقية قدرة على وصف حصانه وسيفه ، وهما عدة فروسيته ، ورفيقاه فى القتال والحرب ، ورمز شجاعة أجداده العرب القدماء . وقد عبر عن مشاعره الحقيقية تجاه فرسه وسيفه فى هذا الجزء الذى قاله من قصيدة طويلة ، حيث يصف فيها قيادته لفيالق المحاربين ، وقد إشتعلت أرض المعركة قتالا بالسيوف اللامعة ، وهو يمتطى فرسه الأشقر ، ويصف البارودى – الفارس – فرسه بدقة ، فى عدة صور فنية تتميز بالألوان المرئية المختلفة ، والحركات المتمايزة ، والأصوات المسموعة ، وكلها يتفرق إدراكها بين مختلف حواس القارىء ، فحصانه الأشقر يجمع صفات كرام الخيل ، فهو أحمر اللون صافيه ، وتسود عرفه وذنبه حمرة واضحة ، وتتزين قوائمه الثلاث ببياض ظاهر ما عدا يمناه ، بينما ينتشر على جوانبه لون إصفرار الشمس ساعة الغروب . وتبدو حوافره زرقاء اللون ، وعيونه سوداء ، وأشفار فمه يخالطها السواد الشديد ، وقد إجتمعت فى فرسه كل الصفات الوراثية الحسنة فى نجائب الخيل ، فهو جميل فى مشيه ، فاذا سار تبختر ، وإذا صهل إنبعث صهيله من حلقه وإخترق الآذان كأنه الرعد الصاخب ، أو صوت أجراس الأديرة والكنائس . وهو فرس سريع فى عدوه ، فاذا إنطلق فى رحلة صيد لا تدرك الوحـــوش سرعته ، ولا تجد وسيلة للهرب منه إذ يفاجئها فى مخابئها قبل أن تشعر باقترابه ، ويصيبها الضعف والوهن من مطاردته وملاحقته ، فتسقط على الأرض وقد تخازلت قوتها إعياء . وهو فرس ذكى دقيق الحواس مرهفا ، ذو بديهة سريعة فى فهم إشارة صاحبه مهما كانت خافية ، ومطيع لأوامره وزجره ولو كانت صادرة عن بعد

فـقـد أسـيـر أمـام الـقـوم ضـاحـيـة والجـو بـالـبـاترات البـيض مـشـتـعـل

(١) محمود سامى البارودى / أوراق البارودى ، المجموعة الأدبية / دراسة وتحقيق وشرح د. سامى بدراوى / المركز العربى للبحث والنشر بالقاهرة ١٩٨١ / ٨٠ .

بكل أشقر قد زانت قوائمه ... حجوله غير يمنى زانها العطل (١)

كأنه خاض نهر الصبح فانتبذت ... يمناه وانبث فى أعطافه الطفل (٢)

زرق حوافره سود نواظره ... خضر جحافله فى خلقه ميل (٣)

كأن فى حلقه ناقوس راهبة ... باتت تحركه أو راعد زجل

يمر بالوحش صرعى فى مكامنها ... فما تبين له شدًا فتنخذل

يرى الإشارة فى وحى فيفهمها ... ويسمع الزجر من بعد فيمتثل

وفضلا عن هذه الصفات الكريمة فى فرسه، فإن كل من ينظر اليه وهو ينطلق مسرعا يؤخذ بجماله ، وينبهر بصفاته الجميلة ومنها سرعته ، ولو إمتدت اليه العيون بنظرة سريعة فإنها تكون خاطفة لا تتيح لصاحبها أن يركزها على جانبى فرسه ، بل يظل شاخصا اليه ببصره ، لا يملك سوى الإعجاب به . أما اذا مرّ بأناس جالسين ، نهضوا من مجالسهم وقد أخذتهم روعته ، واستولى جمال حركاته على عيونهم ، وإمتلك عقولهم . بالإضافة الى هذا فهو فرس كريم ، يطويه اللين ولو كانت تقوده طفلة ذات خمس سنوات ، ويهيجه العنف فيثور غضبا إذا نهره أو زجره رجل . ولهذا يؤكد البارودى الفارس أن فرسه – بمثل هذه الصفات الكريمة – وسيفه الحاد البتار هما عدته فى إقتحام هول المعارك التى يشتد فيها فزع النفوس ، فإنه – فى مثل هذه المعارك – يحصد بسيفه القاطع هامات أعدائه ويصيب مقاتلهم بسرعة البرق الخاطف ، فلا يكاد سيفه يبتل من دمائهم ، لقوة يده – كمحارب شجاع – ولرهافة حد سيفه ، الذى يفتك بالأعداء فتكا خاطفا ، فيظلون لبرهة واقفين فيظن من يراهم أنهم أحياء ، بينما هم – فى الحقيقة – قتلى فاجأهم فارس شجاع ذو قبضة قوية سريعة ، تمسك بسيف مرهف حاد سريع القطع . ويتحرك سيفه فى

(١) التحجيل : بياض فى قوائم الفرس أو بعضها ، بعضه لا يجاوز الركبتين والعرقوبين ، والحجل : الخلخال ، والقيد (ج) أحجال وحجول . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ١ / ١٥٨ .

(٢) الطفل : طفل الشمس : مالت للغروب . والطفل : إقبال الليل على النهار بظلمته و – الظلمة نفسها ، والوقت قبيل غروب الشمس ، أو بعد العصر اذا طفلت الشمس للغروب وطفل العشى : أخره عند غروب الشمس وإصفرارها و – الوقت بعد طلوع الشمس . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٥٦٠ .

(٣) اخضر الليل : اسود . اخضرت الظلمة : اشتد سوادها ، والخضرة فى الخيل : غبرة تخالطها دهمة . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط جـ ١ / ٢٤٠ – ٢٤١ .

– والجحفلة : لذوات الحافر من الخيل والبغال والحمير : كالشفة للإنسان (ج) جحافل / مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ١ / ١٠٨ .

قبضة يده مطاوعا لضرباته وقد اصطبغ بدماء أعدائه ، فيبدو كأنه شعلة متوهجة تحركها الريح . ويفتخر البارودى بشجاعته ، وبقوة إمساكه السيف ، وبكثرة قتلاه وجرحاه من أعدائه ، لدرجة أن سيفه وقد إرتوى من دمائهم ، فاصطبغ - من ثم - بلونها ، فخفتت حينئذ حدة لمعانه وبريقه ، ومع هذا ظل سيفه فى قبضة يده ، يكسر كل ما يصادفه من أسلحة الأعداء دون أن يصيب حده خدش أو انثلام أو تكسر :

لا يملك النظرة العجلاء صاحبها ... حتى تمر بعطفيه فتحتبل (١)

إن مرّ ، بالقوم حلوا عقد كبوتهم ... وإستشرفت نحوه الألباب والمقل

تقوده بنت خمس فيتبعها ... ويستشيط إذا ها هى به الرجل (٢)

أمضى به الهول مقداما ويصحبنى ... ماضى الغرار اذا ما استفحل الوهل

يمر بالهام مر البرق فى عجل ... وقت الضراب ولم يعلق به بلل

ترى الرجال وقوفا بعد فتكته ... بهم يظنون أحياء وقد قتلوا

كأنه شعلة فى الكف قائمة ... تهفو بها الريح أحيانا وتعتدل

لولا الدماء التى يسقى بها نهلا ... يكاد من شدة اللألاء يشتعل

يفل ما بقيت فى الكف قبضته ... كل الحديد ولم يثار به فلل (٣)

وفى وصف الجيوش وساحات المعارك التى خاضها البارودى ، يبدو الشاعر الفارس مصورا بارعا ، دقيقا فى وصفه . فالجيوش فى حركتها - والرايات تعلوها - تبدو كأنها الطيور الكاسرة ، وقد وقعت على ضحاياها من قتلى الحرب ، وحينما يثار الغبار ويرتفع فوق أرض المعركة - من كثرة عدد المتحاربين وإندفاعهم فى حركاتهم - يندفع الفرسان الشجعان كأنهم البحور الجارفة ، وهم يحملون الرماح اللامعة ، فتضىء طريقهم كأنها المشاعل الموقدة ، ومن كثرة عدد جنود الجيش وفرسانه ، بخيولهم وأسلحتهم ، فإنهم

---

(١) تحتبل : حبله حبلا : شده بالحبل . وحبل الصيد : نصب له وصاده بها ، ويقال : حبلت فلانة فلانا : اوقعته فى شباك حبها وسحرته . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ١ / ١٥٣ .

(٢) هاهى : هاها الراعى بالماشية دعاها للعلف بقوله : هىء هىء ، وزجرها بقوله هاها ، المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٩٦٨ . وقد وردت الكلمة هكذا فى ديوان البارودى (هاهى) وقد حذفت الهمزتان لتستقيم موسيقى الوزن فى الشطر .

(٣) ديوان البارودى / حققه وصححه وضبطه وشرحه محمد شفيق معروف / دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٤ / جـ ٣ / ١٥٧ - ١٦٣ .

يملأون أرض المعركة ولا يجدون مكانا متسعا للراحة فيه وقت القيلولة ، ولا يكفيهم ما يجدونه من ماء للإرتواء . وفى مثل هذا الجيش الذى يقوده البارودى الفارس ، فإنه لا ينفك يثير فى جنوده حماس القتال ، فيتقدم فرسانه الشجعان ، وهم يمتطون الجياد الأصيلة ، كأنهم الأسود تكاد تفتك بفرائسها وترتفع الرايات فوقهم عالية كأنها الصقور تحلق بحثا عن فريسة :

تموج به الرايات حتى كأنها ... كواسر عقبان أصابت أبابلا (١)

اذا اسودّ فيه النقع سارت بحوره ... فوارس يحملن الرماح مشاعلا

إذا إنتاب أرضا لم يجد لمقيله ... براحا ولا ريا من الماء كافلا

أهجت به للصافنات (٢) ضراغما ... وأطلقت للرايات فيه (٣) أجادلا (٤)

وقد كانت حياة البارودى حافلة بالشجاعة والفروسية فى الحرب والقتال ، وأضحت شجاعته وفروسيته زادا له فى منفاه بسرنديب ، يتذكره ويحن اليه ، ويعود الى ماضيه المجيد فيعيش بنفسه فى ذكرياته ، ويسترجع صورا متلاحقة من الحروب التى خاضها ، والجيوش التى قادها ، والمعارك التى انتصر فيها هو وفرسانه الشجعان .

وفى القصيدة التالية يسترجع البارودى ماضيه كفارس شجاع ، وقائد محنك ، ويبدو انه نظمها وهو فى المنفى بسرنديب ، لأنه بدأها بالحزن والحسرة ، اذ رأى عمره يمضى وأمنياته تذبل وتموت ، ونميل الى الظن بأن المنطلق النفسى الذى أثار مشاعره فى نظم هذه القصيدة هو تذكره شجاعته وفروسيته وبطولته الماضية ، فى واقع حياته الراهنة بالمنفى ، وهو بعيد عن وطنه . ويتضح من بداية القصيدة مقابلته بين الماضى الزاهى ،

---

(١) أبابل : ترخيم لأبابيل وهى الجماعات ، وتجىء الكلمة فى موضع التكثير ، انظر : المعجم الوسيط / جـ ١ / ٣ .

(٢) هايج فلان فلانا : أثاره ، و – قاتله . تهايج القوم : تواثبوا للقتال . والهيج والهيجاء : الحرب . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ١٠٠٢ . الصافنات : صفن الفرس صفونا : قام ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٥١٧ . والصافن من الخيل هو ما يفعل ذلك وقت سكونه ، أو هو القائم منها مطلقا ، والجمع صافنات . راجع : محمد إسماعيل إبراهيم / معجم الألفاظ والأعلام القرآنية / دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٦٨ / ٢٩٢ . ووردت الصافنات الجياد فى قوله تعالى : ﴿ اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ﴾ سورة ص / آية ٣١ .

(٣) أجادل : جمع أجدل وهو الصقر . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط جـ ١ / ١١١ .

(٤) محمود سامى البارودى : أوراق البارودى / المجموعة الأدبية / مرجع سبق ذكره / ٨٥ .

وبين الحاضر الأليم ، ويصبح ذلك نغمة رئيسية تسود القصيدة منذ بدايتها ، اذ يتذكر الشاعر ماضيه الحافل بالشجاعة فى الحرب ، وهنا يدرك أن رغبته فى الأمجاد وعظائم الأمور كانت بالنسبة له غيبا محجبا . فلم يكن يدرى أن نهاية مطافه ستكون على هذه الصورة من الواقع الأليم ، فلم يغنم من شجاعته وفروسيته سوى نفيه وأبعاده عن وطنه مصر ، ولو كان يعلم ما سيحدث له ، ما ندم ولا ملأته الحسرة ، فرصيد ماضيه الزاهى هو ما يفخر به فى حاضره الأليم ، وانه اذ يتذكر ذلك ، يلعج فى صدره حنين مكتوم للماضى بمفاخره ، وحينئذ يفيض الدمع من عينيه حسرة وحزنا على ما إنتهت اليه حاله . انه يخفى فى قلبه رغباته الدفينة التى لا يستطيع أن يبوح بها الا فى أحلامه ، وهو يحمل بين جنبيه قلبا حزينا ملتاعا . أما فى الليل ، فيزداد حزنه ولوعته وحنينه ، ويشعر بمشاركة الطيور وعناصر الطبيعة – حوله – للوعته ووحدته ، ويستبد بأنفاسه الحزن من النار التى يشعر بها مستعرة فى قلبه ، كأنها ومض البرق ، وكأن وميض البرق نفسه تنفيس عن النيران الحرّى المشتعلة فى قلبه . وتزداد حرقة الشاعر ، فتنهمر الدموع من عينيه وتفيض تحت وطأة انفعالاته المستعرة :

ألم يأن أن يرضى عن الدهر مغرم ... أم العمر يفنى والمآرب تعدم ؟
أحاول وصلا من حبيب ممنع ... وبعض أمانى النفس غيب مرجم
وما كل من رام العظائم نالها ... ولا كل من خاض الكريهة يغنم
يسر الفتى من عشقه ما يسوء ... وفى الراح لهو للنفوس ومغرم
ولو كان للإنسان علم يدله ... على خافيات الغيب ما كان يندم
كتمت الهوى خوف الوشاة فلم يزل ... بى الدمع حتى بان ما كنت أكتم
وكيف أدارى النفس وهى مشوقة ... وأحلم عنها والهوى ليس يحلم ؟
وتحت جناح الليل منى ابن لوعة ... يرق اليه الطائر المترنم
اذا مدّ من أنفاسه لاح بارق ... وإن لاح من أجفانه فاض خضوم [1]

(١) الخضرم : بكسر الخاء وسكون الضاد : الكثير الواسع من كل شىء ، (ج) خضارم وخضارمة والخضرم : بضم الخاء وفتح الضاد : الماء بين العذب والملح . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ١ / ٢٤١ . ويقال : بحر خضرم : كثير الماء ، وبئر خضرم ، ورجل خضرم : كثير العطاء . راجع : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى / أساس البلاغة : مركز تحقيق التراث ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة / جـ ١ / ط ٣ ، صفحة ٢٣٦ .

وهنا ، بعد أن وصل الى هذه الدرجة من الإنفعال والدمع ، يبوح البارودى بحنينه الى أمجاده فى الماضى ، وشجاعته فى المعارك الحربية التى أبلى فيها ، ويتخذ من لغة الحب وألفاظها رموزا للإفضاء بحنيه وشوقه الى الحروب . ومع هذا ، فهى رموز صريحة واضحة ، لا تخفى انفعالاته ، ولا تستر مشاعره ، بل تفيض بها فيضا . وتكشف انفعالاته الدقيقة أنه يحن الى لمعان السيوف بين أيدى الجنود ، والى بريق خوذاتهم وهى تعلو رؤسهم فى ساحات القتال ، حيث يثار فوقهم غبار المعارك ، شديدا كثيفا مرتفعا فى سماء المعركة ، فيحول النهار المضىء الى ليل مظلم . ان الحروب والفروسية هى محبوبته التى يحن اليها فى واقعه الراهن ، حيث يشهد إحباطه وضعفه وغربته ، ولذلك تختار عاطفة البارودى – فى هذا الموقف – الألفاظ الموحية بالقوة ، كأنها تنكص به من حالة الضعف والإحباط الى ضدها ، وتتعمق نفسه – حينئذ – مظاهر القوة فى الحروب ، من طعن أعدائه بالسيوف القاطعة ، وضربهم بالسلاح الحاد والرماح النافذة فى صدروهم وأعناقهم ، وإذ ذاك تسيل دماء أعدائه الفوارس من هاماتهم وأجسادهم ، فتصبح شرابا للسيوف والرماح التى تصطبغ بلون دمائهم ، وتأكل من لحم أجسامهم :

وان التى يشتاقها القلب غادة ... لها الرمح قد والمهند معصم
ينم بها صبح من البيض أزهر ... ويكتمها ليل من النقع مظلم
اذا راسلت كانت رسالة حبها ... بضرب الظبا توحى وبالطعن تعجم
لها من دماء الصيد فى حومة الوغى ... شراب ومن هام الفوارس مطعم

ويعود البارودى الى واقعه الراهن الذى يشهد بضعفه وإنكساره ، فيشعر حينئذ باستحالة تحقيق أمنيته فى العودة الى الحروب ، وإظهار فروسيته وشجعاته . لقد تعلق قلبه بهذه الأمنيات ، وهى تؤكد – فى ماضيه – شجاعته وعزمه وإقدامه ، وانه ليهوى هذا الماض الجميل ويحن اليه ، ولا يندم على شوقه اليه ، ولا يجد مناصا من مناجاته واجترار ذكرياته ، فهى سلواه فى غربته . ولكم استعذب الآلام فى خوضه الحروب المهلكة ، واستعذب مرارة الموت ومع هذا فإن آلام الماضى لأعذب لديه من مرارة الحاضر المؤلم ، وان مذاق الموت فى الحروب لأحلى من طعم الموت فى الغربة :

فتلك التى لا وصلها متوقع ... لدينا ولا سلوانها متصرم
علقت بها وهى المعالى وقلما ... يهيم بها الا الشجاع المصمم

هوى ليس فيه للملاحة مسلك ولا لامرىء ناجى به النفس مأثم
تلذ به الآلام وهى مبيرة [١] ويحلو به طعم الردى وهو علقم

ويصرح البارودى بأنه يهيم حبا فى الحروب - التى تتجلى فيها قوة الفارس وشجاعته - وفى أسلحة القتال وعتاده وأدواته ، وسيوفه الحادة الصارمة القاطعة ، وهنا يحاول أن يخضع عناصر القوة فى الطبيعة حوله ، لعناصر القوة والشجاعة التى كانت فى نفسه ، ومازال يحن اليها . ولذلك يقول انه اذا سار فى الحروب نهارا ، ركدت العواصف الهائجة ، وانقطعت أنفاسها ، واذا أسرى ليلا نامت الكواكب وانطفأ بريقها ، وساد الكون ظلام دامس ومع هذا فهو لا يهاب ظلاما ولا يخاف أعداء . ونلاحظ - فى الأبيات التالية - أن الشاعر قد جمع السيرا نهارا والسرى ليلا فى « وحدة زمنية » للتعبير عن إمتلاكه الزمن فى الماضى ، بينما يقهره الزمن فى الحاضر . وربما يؤكد لنا إحساسه بالمفارقة الزمنية بين الماضى والحاضر ، ذكر البارودى أن لحظة زمنية « فرجة » كانت لديه الحد الفاصل بين إخراج السيف من غمده أو أمره لجنوده باخراج سيوفهم من أغمادها . وكانت تلك اللحظة الدقيقة هى الفيصل بين الحياة والموت ، وفى هذا تأكيد لشجاعته فى الماضى . أما فى حاضره الراهن - فى المنفى - فالزمن يمتد بطيئا ، بينما هو حى يعانى آلام الحياة ، ومرارة النفى . ويفصح الضمير « أنا » فى البيت الحادى والعشرين عن رغبة الشاعر فى استعادة قواه النفسية ، وإحساسه بنفسه للتغلب على ما يعانيه من قهر وإحباط ، ولذلك يصرح بأنه لا يشعر بنفسه إلا فى الحروب والقتال ، ففيها تظهر قوته وإرادته وشدة بأسه ، فلا يخاف صياح الأعداء المزعج ، ولا يهاب الشر اذا إشتد القتال واختلط المقاتلون ، وخافت الأنفس من الموت . ويعود الشاعر مرة أخرى ليجمع بين الماضى والحاضر فى وحدة زمنية ، تشعرنا بالمفارقة بين الصبح المشرق والليل المظلم ، فقد كان الصبح يشهد غارته على أعدائه من الأبطال الشجعان ، وكان الليل المظلم يشهد كرمه وسخاءه . أما فى الحاضر الراهن ، فقد نفاه أعداؤه ، ولم يكونوا كراما معه ، إن السياق النفسى للقصيدة يوحى بعلاقة المفارقة بين الماضى والحاضر :

فمن يك بالبيض الكواعب مغرما فانى بالبيض القواضب مغرم
أسير وأنفاس العواصف ركد وأسرى والحاظ الكواكب نوّم

---

(١) مبيرة : بار الشىء بورا وبوارا : هلك ، والبور : الفاسد لا خير فيه . مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط / جـ ١ / ٧٦ .

وما بين سل السيف والموت فرجة ... لدى الحرب الا ريثما أتكلم
أنا المرء لا يثنيه عما يرومه ... نهيت العدا والشر عريان أشأم (١)
أغير على الأبطال والصبح أشهب ... وآوى الى الضيفان والليل أدهم

ورغم حوادث الدهر وتقلبها على البارودى ، اذ فقد أهله وأصحابه – بنفيه الذى لا يعلم نهايته – ومع هذا النفى فقد الصحبة والنصرة ، وأمسى وحيدا مهزوما ، رغم كل ذلك يعود الشاعر ليسترجع الماضى ، مستعيدا معه عناصر القوة التى كان يملكها إبان قوته وشجاعته ويستخدم الفعل المضارع تأكيدا لإستمرار الماضى فى نفسه (يصحب ، وينصر) وجاءت عناصر القوة التى استمدها الشاعر – مع هذين الفعلين – لتؤكد رفض البارودى لحاضره المؤلم ، فقد كان ماضيه يشهد قوته وشجاعته فى الحرب ، اذ كان سيفه يصحبه ، وفرسه الأصيل ورمحه ذو الحد القاطع . وفضلا عن هذا ، فقد كان الشاعر يجمع – وما زال – مع القوة والشجاعة – صفات العقل الراجح ، والرأى السديد ، وفصاحة اللسان . وكل هذه الصفات تجعل الشاعر يرفض حوادث الدهر التى غمرته بفيض من الآلام ، ويبدو هذا فى قوله : « فما أنا بالمغمور » وهو – فى هذا الصدد – يؤكد فخره بشجاعته وفصاحته ، فهو حقا رب السيف والقلم والشجاعة والبيان . ولما كانت شجاعته قد ولى زمنها الماضى ، وانتهت به الحال بسببها وبسبب أعدائه الى نفيه وغربته ، فلم يبق له حينئذ ما يتمسك به ويفتخر سوى استرجاع صدى ماضيه ، ففيه شجاعته وفصاحته وبلاغة بيانه ، وانه لواثق أن شجاعته وفنه سيخلدان ذكره كما خلدا الكثيرين قبله :

ويصحبنى فى كل روع ثلاثة ... حسام وطرف أعوجى ولهذم
وينصرنى فى كل جمع ثلاثة ... لسان وبرهان ورأى محكّم
فما أنا بالمغمور إن عنّ حادث ... ولا بالذى أن أشكل الأمر يفحم
لسانى كنصلى فى المقال وصارمى ... كغرب لسانى حين لم يبق مقدم

وهنا يستلهم البارودى بعض أسماء الأعلام المشهورين فى تاريخ العرب بالفروسية والبيان ، فهو – فى موقفه النفسى الراهن – مازال يتجه الى الماضى ، يستلهم منه عناصر القوة ، ويستمد منه ما يعينه على مواجهة انكساره ، وإحباطه ، وغربته فى منفاه .

---

(١) نهيت العدا : نهت القرد ونحوه نهيتا ونهاتا : صاح . وقال : نهت الأسد : صاح دون الزئير . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط جـ ٢ / ٩٥٧ .

فيستلهم اسم فارس مشهور من « بنى فراس » هو شيخها « ربيعة بن مكّدم » ولهذا الإستلهام دلالته النفسية ، فهو منفى ، وحيد مهيض الجناح ، يعانى الغربة والتشتت الروحى ، والإحساس بالضياع فى بعده عن وطنه وأسرته وأحبائه ، ويفتقد من يفتديه ليعود الى وطنه ، ومن ثم يتجلى رمز « قبيلة فراس » [١] كمعنى للقوة والعصبية القبلية التى افتقدها فى قومه ، فلم يجد من يدافع عنه ، أو يدفع عنه الأذى . أما « شيخ فراس » فهو رمز للزعامة والرئاسة التى كان يتولاها البارودى قبل النفى ، حيث كان رئيسا للوزراء فى مصر ، فهل يوجد – من ثم – من يفتديه كما كانت « قبيلة فراس » تفتدى شيخها ؟ بل انه لو كان يعيش فى عصر فراس ، حيث العصبية القبلية والقوة – أو قل إن البارودى يتمنى ذلك – لإفتدته القبيلة بشيخها .

وتجد نفس البارودى فى تعمق رموز القوة والفصاحة ، والبيان والكرم فى ماضى العرب وتاريخهم القديم ، ويمثل هذا الماضى – بالنسبة له – أزهى عصورهم وأنضرها قوة ، ومن هنا يستلهم اسم « شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمى المنقرى الأهتمى ، من أهل البصرة – توفى فى سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م – وكان ينادم الخلفاء ويقصد اليه أهل بلده فى حوائجهم ، ومما عرف عنه أنه أديب الملوك ، وجليس الفقراء ، وأخو المساكين » [٢] فلا شك عندنا أن البارودى قد إستلهم كل هذه الصفات من رمزه التاريخى ، الذى استمده وهو فى حالة انكساره وضعفه ونفيه .

أما رمز « أكثم » فهو يوحى للبارودى بدلالات كثيرة منها : الحكمة ، والزعامة ، والعمر الطويل . فقد كان « أكثم بين صيفى بن رباح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية التميمى حكيم العرب فى الجاهلية ، وأحد المعمرين الذين سمعوا برسالة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، ومات فى سنة ٦٣٠ م حينما قصد الى الرسول يريد الإسلام ، مع مائة من قومه ، فأدركه الموت فى الطريق قبل أن يصل الى المدينة المنورة ، وهو ممن تعنيهم الآية الكريمة : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله ﴾ النساء / ١٠٠ » [٣] وربما استلهم البارودى أيضا جزاء « أكثم » حيث وقع

(١) فراس : قبيلة عربية تنتمى الى « فراس بن غنم بن ثعلبة من كنانة » احدى القبائل المضرية ، عرف بنوها بالشجاعة ومنهم « ربيعة بن مكدم » الفارس المشهور ، ويعده البارودى شيخها وفارسها ، راجع أسماء الأعلام وشرحها لمحمد شفيق معروف / ديوان البارودى / جـ ٣ / ٥٥٢ – ٥٥٣ ، هامش ٢٧ . أما فهمها كرموز وما تعنيه فى نفسية البارودى فهو من جهد الباحث .

(٢) راجع : ديوان البارودى / جـ ٣ / ٥٥٢ – ٥٥٣ هامش ٢٧ .

(٣) المصدر السابق / نفسه / وأرقام الصفحات والهامش نفسها .

أجره على الله ، فربما كان البارودى يخشى الموت فى الغربة ، واذ ذاك تمنى أن يكون أجره على الله ، جزاء جهاده ضد أعدائه ، وكفاحه لصون كرامة بلاده :

اذا صلت فدّتنى فراس بشيخها ... وإن قلت حيانى « شبيب واكثم »
فلا تحتقر فضل الكلام فانه ... من القول ما يبنى المعالى ويهدم
وما هو إلا جوهر الفضل والنهى ... يسرّد فى سلك المقال وينظم
فما كل من حاك القصائد شاعر ... ولا كل من قال النسيب متيّم
فان يك عصر القول ولىّ فاننى ... بفضلى - وان كنت الأخير - مقدّم (١)

ويكشف لنا البارودى عن جانب آخر من جوانب نفسه المشرقة فى ميادين الحرب والقتال حيث خاض حرب كريت ، وكانت أول حرب فعلية فى حياته العسكرية ، وكذلك فى حرب البلقان حيث كان فى قمة نضجة العسكرى والإنسانى .

البارودى فى حرب كريت :

تعد جزيرة كريت Créte من اكبر الجزر اليونانية ، وهى تقع فى الشمال الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وتقابل بحر إيجه Aegean Sea الواقع بين تركيا واليونان ، وعاصمتها خانيا Canea (٢) ويسميها العرب والأتراك « قندية » وتقع جنوب شبه جزيرة « اكروتيرى » فى الشمال الغربى لكريت . وقد سميت كريت من قبل المؤرخين والجغرافيين المسلمين فى العصور الوسطى باسم « اقريطش » (٣) وربما تعود هذه التسمية الى « أبى حفص عمر بن عيسى الأندلسى المعروف بالأقريطشى ، الذى بدأ غزوه لها فى سنة ٢١٠ هـ فى أيام المأمون » (٤) ثم واصل وتحها فى سنة ٢١٢ هـ الى « أن تَم فتحُها كلُّها فى عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م » (٥) .

---

(١) ديوان البارودى / ج ٣ / ٥٤٣ - ٥٥٤ .
(٢) راجع : يوسف آصاف / تاريخ سلاطين آل عثمان / تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى / دار البصائر دمشق / جـ ٢ / ط ٣ / سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م / ١٠٧ وانظر هامش ٢ و ٣ بالصفحة نفسها .
(٣) راجع : د. اسمت غنيم / الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية / دار المعارف الإسكندرية ١٩٨٣ ص ٣٢ .
(٤) راجع ياقوت الحموى / معجم البلدان / دار صادر بيروت ب . ت جـ٢ / ٢٣٦ .
(٥) د. اسمت غنيم / الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية / ٧١ - ٩١ - ٩٢ .

ولموقعها الجغرافى إشتهرت كريت قبل الفتح الإسلامى لها بعمليات القرصنة ضد السفن التجارية المارة بالبحار المحيطة بها ، كما إشتهرت بأسواق الرقيق [١] . وتوالت على الجزيرة – بعد ذلك – عصور تاريخية جعلتها أهم مراكز جمهورية البندقية ، كما شكلت « كريت » مركزا بحريا لأساطيل البنادقة والمالطيين للهجوم على السفن العثمانية فى البحر المتوسط وبحر إيجه ، حتى غزاها العثمانيون فى سنة ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٥ م فى عهد السلطان ابراهيم خان الأول [٢] . وتحول كثير من أهلها الى الإسلام ، ومعهم كثير من الألبان وسكان الجبل الأسود والبلغار ، والتحق الآلاف منهم بخدمة الجيش والإدارة العثمانية [٣] .

وفى القرن التاسع عشر أسهمت عوامل مختلفة فى ثورة شعوب شبه جزيرة البلقان ضد الحكم العثمانى ، فقد سمعت هذه الشعوب – الصرب والبلغار واليونان والألبان والرومان – عن « تطورات الثورة الفرنسية ومبادئها ، مثل الحرية والإستقلال والمساواة والإخاء وسيادة الشعب ، بينما ضعفت الإدارة التركية لهذه البلاد وتفككت معها الإمبراطورية العثمانية ، ومن هنا ثارت هذه الشعوب رغبة فى الحرية والإستقلال والتخلص من الحكم العثمانى » [٤] وحدثت عدة ثورات من هذه الشعوب ضد الأتراك العثمانيين ، منها ثورة الصرب فى سنة ١٨٥٤ م وثورة اليونان فى سنة ١٨٢١ م التى حدثت فى « ياسى من أعمال ولايتى الأفلاق والبغدان وأخمدها الجيش التركى فى ستة أشهر » [٥] وكذلك ثورة الجزر اليونانية فى جنوب اليونان – شبه جزيرة المورة – وفى الجزر اليونانية ببحر إيجه ، ومنها ثورة جزيرة « كريت » حيث قتل اليونانيون كثيرا من الأتراك ، وحدثت مذابح عديدة بين الطرفين . وحينما سقطت كثير من الحاميات التركية ، اتجه السلطان العثمانى « فى عام ١٨٢٢ الى محمد على – والى مصر – لإخضاع ثورة جزيرة كريت » [٦] وفى هذا الوقت كان محمد على قد استطاع تكوين جيش مصرى

---

(١) انظر د. اسمت غنيم / المرجع السابق / ٤٢ .

(٢) انظر : محمد فريد / تاريخ الدولة العلية العثمانية / تحقيق د. إحسان حقى / دار النفائس بيروت ط ٢ / ١٩٨٣ م / ٢٨٦ – ٢٨٧ .

(٣) راجع : بول كولز / العثمانيون فى أوروبا / ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ / الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣ / ١٨٤ – ١٨٥ – ١٨٦ .

(٤) انظر : د. جميل عبيد / قمة احتلال محمد على لليونان / الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٠ / ٢٩ – ٣١ .

(٥) راجع : د. جميل عبيد / نفسه / ٤٨ – ٥٠ .

(٦) راجع : د. جميل عبيد / نفسه / ٥١ – ٥٣ .

برى ، وإسطول بحرى قوى ، تمكن بهما من فتح الحصون المنيعة والإنتصار فى المعارك الحربية والإستيلاء على المدن فى كريت واليونان وجزر بحر إيجه . وذكرت المراجع التاريخية أن القوة المصرية التى إشتركت فى هذه الحرب كانت تتكون من « ١٦ ألف جندى نظامى ، وبضعة آلاف أخرى من الفرسان ومن غير النظاميين ، غير أطقم السفن من البحارة النوتية ، والبحارة المسلحين وضباطهم البحريين . وتراوح عدد سفن الأسطول المصرى الذى نقل هذه القوة الى ساحة المعارك بين مائة ومائة خمسين ناقلة ، فى حماية عدد من السفن المسلحة ، تراوح عددها بين إحدى وخمسين وثلاث وستين سفينة ، تحت قيادة ابراهيم باشا ابن محمد على [١] .

وبسبب قوة الجيش المصرى وجدارة فرقه العسكرية ، استطاع محمد على إخضاع ثورة كريت فى سنة ١٨٢٤ م حيث « سقطت أقوى معاقلها فى سفاكيا Sphakia رغم صلابة ثوار كريت ومناعة بلادهم الطبيعية » [٢] ومن هذه الموانع الطبيعية سواحلها الكثيرة التعاريج ، وسلسلة الجبال الضخمة التى تخترق الجزيرة من الشرق الى الغرب « ومنها جبل ديكته Dicté وجبل إيدا Ida وجبال بلانك Blanks ، فضلا عن وجود غابات كثيفة من الأشجار فوق هذه الجبال ، بالإضافة الى وجود نهرين رئيسيين يتجهان نحو الجنوب ، وتتفرع منهما عدة فروع تصل الى اثنى عشر فرعا » [٣] .

وكان نجاح محمد على فى اخضاع ثورة كريت سببا فى تنبه السلطان العثمانى الى قوة مصر العسكرية ، مما جعل أنظار السلاطين العثمانيين تتجه الى مصر وولاتها ، تستمد منهم القوة الحربية والعون المادى ، للقضاء على الثورات التى ظهرت فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، خاصة الثورة الثانية لجزيرة كريت التى شبت فى سنة ١٨٦٦ هـ . فحينما اشتعلت هذه الثورة وضيق الثوار الخناق على العثمانيين بالجزيرة حتى عجزوا عن مقاومتهم ، حينئذ أرسل الباب العالى يطلب نجدة الجيش المصرى . واستجاب الخديوى اسماعيل « وجهز حملة تزيد على خمسة آلاف جندى ، تقلها عشر سفن من الأسطول المصرى بقيادة شاهين باشا - أحد قواد الجيش المصرى المشهورين -

---

(١) راجع : د. جميل عبيد / المرجع السابق / ص ٨٥ - ٩٨ .

(٢) راجع : د. جميل عبيد / نفسه / ٥٣ - ٥٤ .

(٤) انظر : د. اسمت غنيم / الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية / مرجع سبق ذكره / ٣٩ - ٤٠ .

« وكان من بين ضباط الجيش المصرى فى هذه الحرب محمود سامى البارودى ، وفى هذه الحرب كانت نشأته الحربية » (١) .

وتذكر المراجع التاريخية أن الجنود المصريين « قد ابلوا بلاء حسنا فى القتال ، وأبدوا من الشجاعة والإقدام ما خلد ذكرهم » (٢) فحينما نزلوا الى سواحل جزيرة كريت قاتلوا الثواربضراوة (وجعلوهم يشعرون بشدة وطأتهم عليهم ، ويدركون الفرق ما بين أولاد النيل البواسل حينما تكون كتائبهم وجحافلهم منظمة ، تامة المهمات ، وبين شراذم الباشبوزق المجموعة بدون نظام من كل فج عميق ، فساقوا طوائف الثائرين أمامهم ، وتوغلوا فى داخلية الجزيرة حتى تمكنوا من فصل بعض فرق الأعداء عن خمسيهم المهم ، وأوقعوا بهذا الجيش عينه بالقرب من أرقاذى ، وضربوه ضربة تزلزلت لها أركان كريت بأسرها ، وخيل للملأ أن الثورة قد قضى عليها) (٣) .

والثابت أن البارودى قد شارك فى حرب كريت وعمره سبعة وعشرين عاما ، ومعنى هذا انه كان فى أول مرحلة الشباب والرجولة ، حيث بلغ درجة من النضج العقلى والجسمانى ، واكتسب خلالها المهارة فى تنشئته العسكرية ، وها هو ذا يدخل عالما جديدا هو عالم الحرب والقتال والمعارك الحربية ، وسيكتسب منه خبرة جديدة ، ولديه مثل أعلى يرغب فى تحقيقه ، لإثبات شجاعته ووجوده ورجولته ، وربما يتطابق مثله الأعلى مع أحلامه وآماله التى يفصح عنها فى شعره . وكان البارودى من الضباط الذين أنعم عليهم السلطان عبد العزيز بالوسام العثمانى من الدرجة الثانية لشجاعته فى القتال ، كما كرمه الخديوى إسماعيل ، وعينه ـ بعد عودته من حرب كريت – فى أكتوبر سنة ١٨٦٧ م فى وظيفة ياور (٤) .

---

(١) انظر : عبد الرحمن الرافعى / عصر اسماعيل /جـ ١ / ط ٣ / دار المعارف بمصر ١٩٨٢/١٩٨ – ١٩٩ . ويلاحظ إن محقق ديوان البارودى قد ذكر أن حرب كريت كانت فى سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م ، راجع : ديوان البارودى / جـ ٤ / دار المعارف بمصر ١٩٧٥ / ٤٢ ملحق هامش ٥١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى / عصر اسماعيل / جـ ١ / ١٩٨ – ١٩٩ .

(٣) راجع : الياس الأيوبى / تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٧٩ ، المجلد الثانى / مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٣ / ٢٣٦ – ٢٣٧ ، وانظر : عبد الرحمن الرافعى / المرجع السابق / ١٩٨ – ١٩٩ ، وراجع محمد فريد / تاريخ الدولة العلية العثمانية / مرجع سبق ذكره / ٥٤٢ – ٥٤٣ .

(٤) راجع : عبد الرحمن الرافعى / عصر اسماعيل / جـ ١ / مرجع سبق ذكره / ١٩٨ – ١٩٩ . وراجع : ديوان البارودى / جـ ٤ / ٤٢ ملحق هامش ٥١ لمحقق الديوان محمد شفيق معروف . أما كلمة « ياور » وجمعها « ياوران » فهى كلمة تركية بمعنى المساعد والمعاون ، وتعنى فى السلك العسكرى رئيس أركان الحرب . راجع : يوسف أصاف/ تاريخ سلاطين آل عثمان / مرجع سبق ذكره / جـ ١٦٧/٢ هامش ١ .

ومن وحى حرب كريت ، نظم البارودى أشعارا معبرة عن تجارب ذاتية ، خاضها البارودى بجسد المحارب الشجاع وعقله ، وبقلب الشاعر الفنان المرهف إحساسا ، ومنها هذه القصيدة التى يصف فيها موضع المعركة والحرب ، والخيل والفرسان ، والطبيعة الجبلية للجزيرة . وفى الأبيات الأولى من القصيدة يرسم لنا الشاعر بدقة وشاعرية مكان الحرب وزمانها ، حيث أسدل الليل أستاره الداكنة على أرجاء الجزيرة ، ونام الناس إلا فرسانه وجنوده ، فما برحوا مستيقظين فوق ظهور جيادهم ، وكيف يأتيهم النوم وهم فى حالة حرب ، وفى أرض المعركة يتربص بهم الأعداء من كل جانب . ولف الظلام بأستاره الداكنة نواحى الجزيرة ، فحجب مرتفعاتها ، وستر جبالها وأماكنها العالية ، فلا تكاد العين تتبين شيئا فى هذا الظلام الدامس ، سوى الرماح الصلبة التى تلمع فى أيدى المحاربين . وفى هذا الليل الأسود ، يتجول البارودى القائد فى أرض المعركة ، متفقدا جنوده وفرسانه ، وقد خفوا الى الجزيرة بعد أن طغت فتنة الثائرين بها ، وراحت تكتسح ما يعترضها كأنها الطوفان . وراح الشاعر الفارس يصغى بانتباه الى ما يتناهى الى سمعه من أصوات صادرة من الأماكن العالية ومنحدرات الجبال ، التى يحتمى خلفها الثوار ، وهم يتسامرون ليلا ، فتختلط أصواتهم بأصوات المغنيات اللاتى يشاركنهم العزف والغناء والسمر . إن الحواس تتنبه فى هذا الليل المظلم ، وتتفتح فيه مسامع الساهرين ، فتلتقط منه أدق الأصوات . وهكذا يصغى البارودى الى أصوات أقدام الخيل وهى تنطلق مسرعة ، ويصل الى سمعه صهيل الجياد حيث أماكن الفرسان ، وصياح الحراس المتناوبين فى حراسة المعسكر وهتاف الأسرى من الأعداء الذين سقطوا فى الحرب إعياءً :

أَخَذَ الكرى بمعاقد الأجفانِ ... وهفا السُّرى بأعِنَّة الفُرْسانِ
والَّليْلُ منْشورُ الذوائبِ ضارِبٌ ... فوق المتالِعِ والرُبُا بِجِرانِ (١)
لا تستبين العَيْنَ فى ظَلْمائِهِ ... إلا اشْتِعال أسِنَّةِ المُرَّانِ (٢)
نسرى به ما بين لُجَّةِ فِتْنَةٍ ... تسمو غواربُها على الطوفانِ

(١) التلعة : ما ارتفع من الأرض ، ومسيل الماء من أعلى الى أسفل ، وما اتسع من فم الوادى ، والجمع متالع ، المعجم الوسيط / جـ ١ / ٨٦ . والجران : باطن العنق من البعير وغيره (ج) أجرنة وجرن ، ألقى عليه جرانه : ثقله . ضرب الاسلام بجرانه : ثبت واستقر . المعجم الوسيط جـ ١ / ١١٩ .
(٢) المران : الرماح الصلبة اللدنة . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٨٦٥ .

فـي كـل مَـــرْبـأةٍ وكُـلّ ثَـنِـيَّـــةٍ تَـهْـدَارُ ســامِـرَةٍ وعَـــزْفُ قِـيـــانِ
تَـسْـتَـنُّ عـــاديةٌ ويُـصَـــهـلُ أجْـــرَدٌ وتَـصِـيـحُ أحْـراسٌ ويـهـتـفُ عـانـي (١)

وبعاطفة الشاعر العربى المسلم ، ينظر البارودى الى ثوار الجزيرة ، فيراهم قد خرجوا عن طاعة السلطان – رمز الخلافة الإسلامية – اذ أغراهم الشيطان برفع راية التمرد والمعصية . ويشرف البارودى القائد على أرض المعركة ، فيراها وقد امتلأت بجيوش المتحاربين من ثوار الجزيرة ، والجنود العثمانيين ، والجيش المصرى ، وقد تأهبوا جميعا للقتال ، وملأوا أرض المعركة حتى نهاية الأفق ، وراحت السيوف والرماح تلمع فى أيديهم ، بينما تبرق الخوذات على رؤوسهم والدروع أمام صدورهم . ويصف الشاعر المعركة وقد احتدمت بين الجيوش المتحاربة ، ويسود صوره الفنية فى هذا الوصف الحركة واللون والصوت ، فتستولى على المشاعر ، وتؤثر فى الحواس . لقد تحركت الجيوش للقتال ، وانطلق الفرسان فوق خيولهم ، وراحت جيادهم تكر هنا وتفر هناك ، وتصاعد الغبار من أرض المعركة ، وارتفع فى جوها وسمائها ، فانعقد سحبا مغبرة داكنة ، حجبت الرؤية ، واختفى نور القمر خلف سحب الغبار ، وانطفأ بريق النجوم ، وتقابلت الرماح فى طعانها ، وسالت دماء القتلى والجرحى ، فاختلطت بمياه البحر ، وتكدر لونها . ويلتفت البارودى بخبرة الفارس الى الطبيعة الجبلية لجزيرة كريت ، وما كان برفقة الجيش المصرى من الفرسان الشجعان ، والخيل المدربة على القتال . وكان سلاح الفرسان من أقوى الفيالق التى اقتحمت أرض المعركة ، وعبرت جبالها وأنهارها ، وإخترقت سهولها ووديانها ، وحينما أقبل الليل بظلامه وهدأت المعركة ، وأوى المتحاربون الى معسكراتهم ، ووضعوا أسلحتهم ، ارتفعت من هنا وهناك المشاعل فوق مواقعهم . وحينما أشرق الصباح ، وسحب الليل أستاره الداكنة التى كانت تحجب عن العين الرؤية الواضحة ، راح البارودى يتنقل ببصره فى أرض المعركة ، بين الربى والوهاد ، ومنحنيات الجبال والسهول والوديان ، والأنهار التى تشق الجزيرة وتنصب فى البحر . وفى كل هذه الأماكن كان الفرسان بخيولهم ، والمتحاربون بأسلحتهم ومعداتهم ، والدماء متناثرة وسائلة هنا وهناك حتى تلونت بها مياه والبحر والأنهار فأصبحت حمراء قانية :

---

(١) استن الفرس ونحوه : جرى فى نشاطه على سننه فى جهة واحدة . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٤٥٦ . العادية : مؤنث العادى : الخيل للغيرة وجماعة القوم يعدون للقتال . المعجم الوسيط جـ ٢ / ٥٨٩ . العانى : الذليل والأسير . المعجم الوسيط / ج ٢ / ٦٣٣ .

قَـوْمٌ أبـى الشَّـيْـطـانُ الاَ نـزْغَـهُـمْ ... فـتـسَـلـلُـوا مـن طـاعـة السُّـلْـطـانِ
مـلأوا الـفـضـاءَ فـمـا يـبـيُـن لـنـاظـر ... غـيـر الُتـمـاع الـبـيـضِ والخُـرْصـانِ (١)
فـالـبـدْرُ أكْـدَرٌ والـسـمـاءُ مـريـضـةٌ ... والـبـحْـرُ أشْـكَلُ والـرِّمـاحُ دَوَانِـى (٢)
والخـيْـلُ واقـفـةٌ عـلـى أرْسـانِـهـا ... لِـطِـراد يـوم كَـريـهَـةٍ ودِهَـانِ
وضعوا السلاَح الى الصباح وأقبلوا ... يـتـكـلـمـونَ بـالْـسُـنِ الـنـيـرانِ (٣)
حـتـى اذا مـا الـصـبـح أسـفـر وارتـمـت ... عـيـنـاى بـيـن ربًـا وبـيـنَ مـحـانـى
فـاذا الجـبـالُ أسِـنَّـةٌ واذا الـوِهـا ... دُ أعِـنَّـةٌ والـمـاءُ أحـمـرُ قـانـى

ولما كانت هذه أول حرب يشترك فيها البارودى ، وهو اذ ذاك فى السابعة والعشرين من عمره ، وقد راعته مناظر القتال ومسيل الدماء ، وجثث القتلى وآهات وأنين الأسرى ، فكانت من الطبيعى حينئذ أن يتجه الشاعر بمشاعره الى مصر موطنه ، فيحن اليها . ويتخذ البارودى من حنين الخيل وسيلة للتعبير عن حنينه الى مصر ، فقد رأت الخيل هول هذه المعركة التى شاركت فيها ، وبعد أن كانت سهلة الإنقياد لفرسانها ، لا تهاب القتال ، راحت تخرج عن طاعتهم ، فأحجبت وإمتنعت عن أوامرهم وأصابها الفزع ، وراحت تردد صهيلها فى صوت حزين يحمل معانى الشوق والحنين الى مواردها بمصر . ولذلك يؤكد البارودى أن ما أفزع الخيل – بل أفزعه هو – هو بعد المسافة بين مصر وكريت ، ويورد بيتا يجرى مجرى الحكمة ، وهو تأكيد لحالته النفسية ، ورغبته فى العودة الى

---

(١) الخِرْصان : الرمح وسنانهُ (ج) خُرْصٌ . والخِرْصُ والخِراصُ : الحلقة من الذهب او الفضة (ج) أخراصٌ وخُرصان . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ١ / ٢٢٧ .

(٢) أشكل الأمر : التبس ، و – اللونَ : شَكَلَ : أى خالطه لون غيرهُ . ويقال : شكلت العينُ : أى خالط بياضها حمرة ، فهو شكِل وأشكلُ وهى شكلة وشكلاء . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٤٩١ .

(٣) لا يتفق الباحث مع الأستاذ محمد شفيق معروف ، شارح ديوان البارودى فى شرحه لهذا البيت فقد قال : « وضعوا السلاح الى الصباح ، أى قاتلوا بأسلحتهم طوال الليل . والتكلم بألسنة النيران : كناية عن احتدام المعركة وتوقد نيرانها ، فقد انقطعت ألسنة التفاوض والتفاهم وإنطلقت ألسنة النيران فى حرب عوان » ديوان البارودى / جـ ٤ / ٤٦ – ٤٧ هامش ١١ ونرى أن عادة الجيوش المتحاربة – فى مثل هذه الحروب – كانت بدء القتال مع أول خيوط ونهايته عند اقتراب الغروب ، فلم تكن التكنولوجيا العسكرية قد تطورت بعد ، ولم تكن القنابل المضيئة – التى تحول ليل المعركة الى نهار – قد اخترعت بعد . للتأكد من انتهاء المعارك الحربية عند الغروب – فى مثل هذه الحروب – راجع : اسماعيل سرهنك / حقائق الأخبار عن دول البحار / المطبعة الأميرية ببولاق . القاهرة ١٣١٦ هـ / هامش صفحة ٣٥٣ .

مصر ، فالنفس الإنسانية مولعة بصاحبها الأول ومكانها الأول ، مهما تغيرت الأماكن ، أو تبدل الصحاب :

فتوجَّستْ فَرَطُ الركابِ ولم تكن ... لتهاب فامتنعت على الأرسَانِ
فزعت فرجَّعتِ الحنينَ وإنمَّا ... تَحْنَانُها شَجَنٌ من الأشجَانِ
ذكرت مواردَها بمصرَ وأين منْ ... مَاءِ بمصرَ منازلُ الرومان
والنفسُ مولَعَةٌ وإنْ هِيَ صادَفَتْ ... خَلَفًا - بأولِ صاحِبٍ ومكانِ (١)

وفى بقية أبيات القصيدة نلاحظ ما يوحى بأن نفس البارودى قد روعت من هذه الحرب - وكانت كما ذكرنا أول حرب يخوضها وهو فى أول شبابه - ومن ثم اتجهت نفسه الى النقيض ، ويتمثل فى الجانب الآخر الذى تهواه هذه النفس ، وتميل اليه هربا من هذا الروع . ومن هنا راحت نفسه تحن الى مصر وما فيها من متع ومباهج ، بل راح الشاعر يعزى نفسه ويخفف عنها ما تعرضت له من حوادث الدهر، وصروف الزمان التى دفعت به الى هذه الحرب ، وأبعدته عن بلاده ففارقها حزينا . ولنا هنا أن نتساءل : لماذا يعزى البارودى نفسه بما تعرض له من إبعاده عن مصر ، وإرساله مع هذه الحملة الحربية الى كريت ؟ ألم تكن هذه الحرب فرصة حقيقية لإظهار شجاعته ، وابداء فروسيته ومهارته الحربية ؟ ولماذا انحرف السياق النفسى للقصيدة من وصف الحرب والمعركة والفرسان والحديث عن الشجاعة ، الى الحنين لمصر والحديث عن الإساءة اليه ونكران الجميل ، وافتراء الكذب عليه ؟

إن الشاعر يذكر فى سياق القصيدة أن هناك من نقم عليه شجاعته - وهى حليته وزينته ومصدر فخره - ومن هنا فقد كانت « حرب كريت » فرصة مناسبة لأولئك الحاقدين لإبعاده عن مصر ، فربما يقتل هناك ، أو يقع أسيرا فى أيدى الثوار ، وهكذا يتخلصون منه.ويبدو أن إرسال البارودى لهذه الحملة - فى رأيه - خيانة ممن صادقهم ولم يتوقع منهم الأذى . إن الشاعر يشكو فى هذه الأبيات زمانه ، فلم يجن منه ما يستحقه:

---

(١) اديوان البارودى / جـ ٤ / من ٤٣ الى ٤٨ .

فَسَقَى السِّماكُ مَحَلَّةً ومَقَامَةً ... فى مِصْرَ كُلَّ رَوِيَّةٍ مِرْنَانِ (١)
حتى تعودَ الأرضُ بعْدَ مُحولها ... شَتَّى النِّماءِ كثيرةَ الألْوان (٢)
بلد خَلَعْتُ بهَا عِذَارَ شَبِيبَتى ... وطرحْتُ فى يُمْنى الغرام عِنانِى
فصعيدُها أحْوى النباتِ وسَرْحُها ... المْىَ الظِّلالِ وزَهْرُها مُتَدانِى
فارقْتُها طَلَبًا لما هو كائنٌ ... والمَرْءُ طَوْعُ تقلُّبِ الأزمَانِ
حَمَلَ الزمانُ علَى ما لمْ أجْنِهِ ... إن الأماثِلَ عُرْضَةُ الحَدَثَانِ
نَقَمُوا علَى - وقد فتكْتُ - شجاعتى ... إن الشجاعةَ حِلْيَةُ الفِتْيَانِ
فَلْيَهْنَأ الدَّهْرُ الغَيُور بِرِحْلَتى ... عَنْ مِصْرَ ولتهدأ صروفُ زمانى
فَلَئِنْ رَجَعْتُ - وسوف أرجعُ واثقا ... بِاللَّه - أعْلَمْتُ الزمانَ مكَانِى
صادَفْتُ بعْضَ القومِ حتى خَانَنى ... وَحَفِظْتُ منه مَغِيبَهُ فَرَمَانِى
زَعَمَ النصيحةَ - بعد أن بلغَتْ به - ... غِشّاً وجازَى الحَقَّ بالبُهْتَانِ
فليبحْرِ بَعْدُ كما أرادَ بنفسه ... إن الشقىَّ مَطِيَّةُ الشيْطانِ
وكذا اللئيمُ أصابَ كرامَةً ... عادَى الصديقَ ومالَ بالإخْوانِ (٣)

وهكذا ، يبدو حديث البارودى عمن نقم عليه شجاعته وجازى صداقته بالأذى والإفتراء عليه . لكن البارودى يؤكد أنه - رغم هذه الحرب - سيعود الى مصر واثقا بالله ، وسيعلم الزمان مكانته وشجاعته ، وسيخيب أمل أولئك اللئام ، الذين خانوا صداقته غشا ، وزوروا الحق بهتانا ، وركبوا مطية الشيطان وناصبوه العداء ، ومالوا بإخوانه عن صداقته .

ويبدو أن البارودى قد أرسل الى « حرب كريت » مغضوبا عليه من الخديوى اسماعيل ، لجريمة اقترفها البارودى فى مصر - فى هذا الطور من شبابه - حيث كان (اسماعيل قد زوجه من إحدى غادات قصوره الألطف جمالا ، لكن البارودى

(١) السِّماكان : نجمان نيّران ، أحدُهما فى الشمال وهو السماك الرامح ، والآخر فى الجنوب وهو السماك الأعزل . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط جـ ١ / ٤٥٠ .
- مرنان : رن رنينا : صوت وصاح . والمرنان : القوس . ويقال : قوس مرنان ، وسحابة مرنان : مُصَوِّتةٌ . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ / ٣٧٦ .
(٢) محلت الأرض : أجدبت . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٨٥٦ .
(٣) ديوان البارودى / جـ ٤ / ٤٩ - ٥٣ .

خنق زوجته [١] ورجلا من أربابالموسيقى لأن هذا الآلاتى كان مغرما بالزوجة ، فاستولت حمى الغيرة على البارودى ، فخنق الزوجة وخنق محبها معا . فأثار بذلك غضب اسماعيل عليه ، وأراد نفى المجرم الى السودان – أى الى القطر الذى لم يكن أحد يعود منه – ولكن أصدقاء البارودى توسطوا له ، فاكتفى اسماعيل بارساله الى « كريت » حيث كانت الكتائب المصرية تقاتل الثوار ، وأوصى بأن لا يعفى من المأموريات الخطرة ، لكن محمودا – بالرغم من ذلك – عاد سليما من تلك الحملة ، ثم تمكن من استعادة رضى مولاه ، والتزوج بإحدى غانيات البيت اليكنى الرفيع العماد) [٢] .

ومن هنا نميل الى الظن بأن ارسال البارودى الى حرب كريت كان نفيا مقصودا به التخلص منه ، جزاء لجريمته فى مصر ، كما يمثل هذا النص الشعرى للبارودى فى تلك الحرب تجربة ذاتية عميقة ، مر بها الشاعر ، وانفعلت بها نفسه ، واهتزت لها مشاعره ، فعبر عنها بصدق . أما الإنحراف فى السياق النفسى للقصيدة من حيث حديث الشاعر عن الحاقدين الذين أبعدوه عن مصر ، وأوعزوا الى خديوى مصر إرساله الى هذه الحرب ، فهو يعد أيضا – من وجهة نظرنا – وثيقة نفسية وتاريخية ، فهى تلقى الضوء على ظلال الأحداث التاريخية المتصلة باشتراك البارودى فى هذه الحرب ، وعلاقة ذلك بالجريمة التى ارتكبها فى مصر ، وبسببها أبعد الى تلك الجزيرة ، لعله يلقى مصرعه ، أو يقع أسر الثوار .

---

(١) ذكر اسماعيل الأيوبى أن البارودى خنق زوجته ومحبها فى سنة ١٨٧٢ م ولذلك أرسله الخديوى اسماعيل الى حرب « كريت » / الثورة الثانية فى سنة ١٨٦٥ م . وواضح تماما أن تاريخ خنق البارودى لزوجته ومحبها به خطأ مطبعى لم يستدركه المؤلف أو ينبه اليه ، وربما تكون حقيقة هذا التاريخ هى سنة ١٨٦٢ م بدلا من سنة ١٨٧٢ م لأن إشتراك البارودى فى حرب كريت تم بعد هذه الجريمة بسنوات . راجع : الياس الأيوبى / تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ م / المجلد الثانى / مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٣ / ٢٤٠ – ٢٤١ . وذكر الدكتور شوقى ضيف إن إشتراك البارودى فى حرب كريت كان فى سنة ١٨٦٥ م ، راجع : البارودى رائد الشعر الحديث / مرجع سبق ذكره / ٥٦ .

(٢) الياس الأيوبى / تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ م / مرجع سبق ذكره / ٢٤٠ – ٢٤١ . وقد ذكر المؤلف انه قرأ عن هذه الجريمة فى كتاب (الإنجليز والفرنساويين بمصر) للمسيو (اشيل بيوفيس) طبعة باريس سنة ١٩١٠ م ، كما ذكر أ. م. برودلى محامى البارودى فى أحداث الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م أنه لم يصدق القصة القاتمة التى يثيرها دائما أعداء البارودى ضده عن انتقامه لخطأ زوجى ، راجع له : كيف دافعنا عن عرابى وصحبه / ترجمة وتعليق عبد الحميد سليم / الهيئة العامة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٧ / ١٧٥ .

لكن البارودى قاتل فى هذه الحرب وعاد منها مظفرا بالنصر ، ووصلت أخبار شجاعته فى القتال الى كل من السلطان العثمانى ووالى مصر . وأنعم كلاهما عليه بالرتب والأوسمة ، بل كرمه الخديوى اسماعيل وعينه فى وظيفة (ياور) بحرسه الخاص ، وأتيحت للبارودى فرصة أخرى للإشتراك فى حرب البلقان ، التى كانت مناسبة أخرى لإظهار مهارته الحربية والعسكرية ، وفروسيته وشجاعته ، وسجل رؤيته لهذه الحرب فى شعره .

البارودى فى حرب البلقان :

شهد القرن التاسع عشر عدة حروب بين تركيا وروسيا ، منها حرب القرم (١٨٥٣ م – ١٨٥٥ م) وحرب البلقان (١٨٧٦ م – ١٨٧٧ م) ، بخلاف الحروب والثورات التى قامت فى الجزر التابعة لتركيا فى البحر المتوسط ، مثل حرب كريت . أما القرم Krum فهى شبه جزيرة بجنوب روسيا الأوروبية ، وتقع شمالى البحر الأسود ، يحدها فى الشمال الشرقى بحر أزوف ، وشمالا مقاطعة أوكرانيا الروسية ، وشرقا مضيق كرش ، وغربا البحر الأسود . ويربطها بالبر ممر يدعى « بريكوب » [١] وفى أقصى الطرف الجنوبى من شبه جزيرة القرم تقع مدينة « سفا ستبول » التى شهدت كثيرا من المعارك الحربية بين الجيش التركى والأساطيل الأوروبية المساندة له ، وبين الجيش الروسى [٢] .

وأما البلقان Balkan فهى شبه جزيرة جبلية كبيرة ، معقدة التضاريس ، تقع جنوب شرق أوروبا ، يحدها شرقا البحر الأسود ، وجنوبا مضيق البوسفور وبحر مرمره ومضيق الدردنيل وبحر إيجه ، وغربا البحر الأيونى والبحر الأدرياتيكى ، وشمالا نهر ساو « الساف Save » ونهر الطونة « الدانوب Danube » أطول أنهار أوروبا . وتشمل البلقان « ألبانيا وصلب بلاد اليونان وجنوب شرق رومانيا ، وبلغاريا وتركيا الأوروبية ، ومعظم يوغوسلافيا التى تضم كلا من « البوسنة – البوشناق Bosna والهرسك Herceg والصرب Serbia » [٣] .

---

(١) راجع : يوسف أصاف / تاريخ سلاطين عثمان / مرجع سبق ذكره / جـ ٢ / ٨٣ هامش ٦ وتنطق القرم « بكسر القاف وفتح الراء » راجع : الأمير عمر طوسون / الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم ١٨٥٣ م مطبعة المستقبل بالإسكندرية ١٣٥٥ هـ – ١٩٣٦ م / ١٢ . وعن حرب القرم راجع : هـ . أ. ل. فشر / تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ م – ١٩٥٠ م / تعريب أحمد نجيب هاشم ورديح الضبع / دار المعارف بمصر ١٩٨٤ / ٢١٧ – ٢٢٧ .

(٢) راجع : هـ . أ. ل. فشر / تاريخ أوروبا فى العصر الحديث / مرجع مترجم سبق ذكره / ٢٢٣ .

(٣) راجع : يوسف أصاف / تاريخ سلاطين آل عثمان / مرجع سبق ذكره / جـ ٢ / ٣٥ هامش ٢ و ٣ . وانظر : باوندز وكنجزبرى / أطلس أوروبا / ترجمة د. محمد فاتح عقيل / منشأة المعارف الإسكندرية ط ٣ / ١٩٧٦ / ١٤٥ .

وتعود أسباب هذه الحروب – بصفة عامة – الى « أطماع روسيا – ذات الإمبراطورية الشاسعة والتسلح الضخم – فى اقتطاع أجزاء من أراضى الدولة العثمانية فى أوربا خاصة فى منطقة البلقان » [١] فضلا عن نيات روسيا المزعومة « بشأن تملك القسطنطينية » [٢] . ولذلك دأبت روسيا على تحريض شعوب هذه البلاد على الثورة ضد الدولة العثمانية ، ففى عهد السلطان العثمانى عبد العزيز خان (ت ١٨٧٦ م) حرضت روسيا على ثورة فى «الجبل الأسود والأفلاق والبغدان وسرعان ما انتقلت هذه الثورة الى بقية مقاطعات البلقان – الهرسك والصرب والبلغار – طلبا للإستقلال عن الدولة العثمانية » [٣] .

وقد أنفذت مصر عدة أساطيل بحرية وجيوش برية لمساعدة تركيا ضد روسيا فى هذه الحروب ، كما حدث فى عهود ولاة مصر « عباس باشا الأول » فى سنتى ١٨٥٣ م – ١٨٥٤ م و « سعيد باشا » فى سنتى ١٨٥٤ م ١٨٥٥ م و « الخديوى اسماعيل » من سنة ١٨٦١ م الى ١٨٧٧ م ، فحينما (قامت فى سنة ١٨٦١ م ثورة فى ولاية الهرسك – إحدى ولايات البلقان – بتحريض من أمير الجبل الأسود ، جردت تركيا جيوشها لمقاتلة الثوار ، ولما تولى إسماعيل عرش مصر ، طلبت اليه الحكومة العثمانية أن يعزز جيوشها فى الروملى بجيش مصرى ، حتى لا يقوى ساعد الثوار ، ولا تزداد اضطراباتهم فى تلك الجهات . فأنفذ اسماعيل باشا فرقة تولى قيادتها اللواء « على غالب باشا » فوصلت الحملة

---

(١) انظر : عمر طوسون / الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم / مرجع سبق ذكره / ٤٥ . وراجع : الياس الأيوبى / تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل / مرجع سبق ذكره / المجلد الثانى / ٢٤١ .

(٢) هـ. أ. ل. فشر / تاريخ أوروبا فى العصر الحديث / مرجع مترجم سبق ذكره /٢١٨ . وراجع : اسماعيل سرهنك / حقائق الأخبار عن دول البحار / المطبعة الأميرية بولاق القاهرة ١٣١٦ هـ / ٣٥٠ – ٣٥١ .

(٣) انظر : يوسف أصاف / تاريخ سلاطين آل عثمان / جـ ٢ / مرجع سبق ذكره / ١٥٢ – ١٥٦ . وراجع : هـ. أ. ل. فشر / تاريخ أوروبا فى العصر الحديث / مرجع سبق ذكره / ٣٦٩ – ٣٧٠ . أما الجبل الأسود = قره طاغ Montnegro فهو « جمهورية مستقلة بيوغوسلافيا – سابقا – تقع فى جنوبها الغربى عاصمتها « تيتوغراد » يوسف أصاف / نفسه / ١٥٥ / هامش ١ . أما الأفلاق فهو « إقليم يقع فى دولة رومانيا ، وعاصمته هى عاصمة رومانيا – بوخارست « يوسف أصاف / نفسه ٢٤ / هامش ٤ . والبغدان « هى – مولدافيا Moldavia وتقع فى المنطقة الشرقية من رومانيا وما يقابل هذه المنطقة من الإتحاد السوفيتى – سابقا – مولدافيا الروسية « يوسف أصاف / نفسه / ٣٨ / هامش ١ .

المصرية الى الآستانة ، وعرضها السلطان ، ثم سارت عن طريق « سلانيك » الى « مناستير » ورابطت هناك) (١) .

كذلك ساعدت مصر تركيا بجيش برى وأسطول بحرى فى حربها ضد الصرب (حينما اشتعلت الثورة فى الهرسك فى سنة ١٨٧٥ م وامتدت الى البوسنة ، وساعدت الصرب الثوار فى هذه المناطق ، وتكونت القوة المصرية من حوالى سبعة آلاف مقاتل بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ، وبعد أن أقلعت الحملة المصرية الى الآستانة ، قصدت حدود الصرب ، حيث اشتركت مع الجيش العثمانى فى قتال الصربيين – الذين كانوا تحت قيادة القائد الروسى جرنابيف (٢) – وفازت عليهم فى كل المواقع وأنعم الخديوى اسماعيل على القواد والضباط بالرتب) (٣) .

وبعد انتهاء المعارك ، وقيام هدنة بين العثمانيين والصرب ، عادت القوة المصرية الى الآستانة . لكن روسيا ظلت – خلال عامى ١٨٧٦م / ١٨٧٧ م – تضمر النوايا العدائية ضد تركيا . ويبدو أن دول أوروبا الأخرى – فرنسا والمانيا والنمسا وإيطاليا وانجلترا – كانت حريصة على إضعاف روسيا وتركيا بإشعال الحرب بينهما ، فضلا عن أن روسيا نفسها كانت المحرض الأكبر لشعوب البلقان على الثورة ضد الأتراك العثمانيين . وفى عهد السلطان عبد الحميد خان الثانى عقد مؤتمر دولى – فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ م – للنظر فى مسائل ولايات البلقان ، طلب فيه من تركيا نزع سلاحها دون روسيا ، وكان هذا إيذانا بتأزم الأمور من جديد ، وما لبثت روسيا أن « حشدت جيوشها على حدود تركيا ،

---

(١) عبد الرحمن الرافعى / عصر اسماعيل / دار المعارف بمصر جـ ١ / ١٩٨٢ م /١٩٨ . و « سلانيك » ببلاد اليونان حاليا ، وكانت ضمن الأراضى التركية فى أوروبا أثناء حربى القرم والبلقان . راجع : عمر طوسون / الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم / مرجع سبق ذكره / خريطة مواقع الحرب / ملحق صفحة ٤٤ . أما « مناستير » Monastir فهى مدينة يوغوسلافية تقع بالقرب من الحدود اليوغوسلافية اليونانية الألبانية / راجع : يوسف أصاف / تاريخ سلاطين آل عثمان جـ ٢ / مرجع سبق ذكره / ١٦٨ هامش ١ .

(٢) راجع : إسماعيل سرهنك / حقائق الأخبار عن دول البحار / مرجع سبق ذكره / ٣٥٠ .

(٣) انظر : عبد الرحمن الرافعى/ عصر اسماعيل / جـ ١ / مرجع سبق ذكره / ١٩٩ واسماعيل سرهنك / المرجع السابق / ٣٥٠ والصرب – صربيا Serbia جمهورية فى يوغوسلافيا – سابقا – تحتل الجزء الشرقى منها عاصمتها بلجراد Belgrade » يوسف أصاف / تاريخ سلاطين آل عثمان / جـ ٢ / مرجع سبق ذكره ٣٧ هامش ٥ .

وانقطعت العلاقات بين الدولتين ، وأعلنت الحرب رسميا فى يوم ١١ ربيع الآخر ١٢٩٤ هـ / ٢٥ أبريل ١٨٧٧ م » (١) .

وهنا لجأت تركيا – مرة أخرى – الى مصر تطلب عونها فى هذه الحرب ، فأعد الخديوى اسماعيل جيشا بلغ عدده ١١٥٣٠ جنديا ، وعقد قيادته لنجله الأمير حسن باشا ، وكان محمود سامى البارودى ضمن ضباط هذه الحملة ، وقائدا للآلاى الأول من الحرس السوارى (٢) . وأقلعت هذه الحملة فى البحر المتوسط ، تحرسها أربع سفن حربية تركية – مكونة من دارعتين وفرقاطتين – وتقلها ست سفن حربية مصرية . وبعد أن وصلت الحملة الى الآستانة أقعلت من هناك رأسا الى وارنه (٣) حيث إنضمت الى الجنود المصرية التى كانت فى حرب الصرب . واشتركت الجيوش المصرية مع الجيوش العثمانية فى الهجوم على الجيش الروسى – الذى كان تحت قيادة الجنرال الروسى زيمرمان Zimmerman وأظهر المصريون هناك البسالة والشجاعة حتى انطلقت الألسنة بالثناء عليهم » (٤) .

كان القتال شديدا فى هذه الحرب ، التى شملت مناطق كثيرة فى البلقان ، وفى مقاطعة أوكرانيا الروسية ، فقتل فيه وجرح كثير من الروس ، كما استشهد فيه وجرح ضباط وجنود مصريون . وإستمرت الحرب ثمانية أشهر حتى عقد الصلح بين روسيا وتركيا فى سنة ١٨٧٨ م ، وكان صلحا مجحفا بتركيا ، اذ ترتب عليه معاهدة برلين

(١) اسماعيل سرهنك / حقائق الأخبار عن دول البحار / مرجع سبق ذكره / ٣٥٠ – ٣٥١ ، وراجع : يوسف آصاف / تاريخ سلاطين آل عثمان جـ ٢ / ١٥٩ – ١٦٣ . وانظر : هـ. أ. ل. فشر / تاريخ أوروبا فى العصر الحديث / مرجع سبق ذكره/ ٣٦٩ – ٣٧٠ . وراجع : د. على حسون / العثمانيون والروس / المكتب الإسلامى بيروت ، دمشق ١٩٨٢ / ١٣٣ .

(٢) السوارى : ربما يعود أصل هذه الكلمة الى الفارسية ، فى « سوار » بمعنى فارس ، و « سواره » بمعنى راكب ، وبهذا يكون معناها « الفرسان » وهى فرقة الحرس الخاص من راكبى الخيل . راجع : المعجم فى اللغة الفارسية ، نقله الى العربية د. محمد موسى هنداوى / مكتبة الأنجلو ودار مطابع الشعب / القاهرة ط ٢ / ١٩٦٥ / ٢٧٠ ، وذكر محمد حسين هيكل فى مقدمة ديوان البارودى أن البارودى رقى فى رتبته العسكرية أول ما نزل مصر مع الخديوى اسماعيل وعين على قيادة فرقتين من الفرسان (Les gardes) راجع / مقدمة ديوان البارودى / جـ ١ / ١٢ .

(٣) وارنه : فارنا Varna ويقال لها أيضا « ستالين Staline وتقع فى شرق بلغاريا على البحر الأسود سميت بستالين بمناسبة عيد ستالين السبعين فى سنة ١٩٤٩ م . يوسف آصاف / تاريخ سلاطين آل عثمان / جـ ٢ / ٥٤ هامش ٢ .

(٤) اسماعيل سرهنك / حقائق الأخبار عن دول البحار / مرجع سبق ذكره / ٣٥٢ – ٣٥٣ .

سنة ١٨٧٨ م حيث « استقلت ولايات البلغار والصرب والجبل الأسود والأفلاق والبغدان ، واحتلت النمسا بلاد بوسنة وهرسك ، واحتلت انجلترا جزيرة قبرص » [١] وقبل ذلك عادت القوة المصرية الى وارنه .

أما البارودى ، فنظرا « لشجاعته وبسالته النادرة فى هذه الحرب ، فقد رقى الى رتبة أمير اللواء ، كما منحه الأتراك نيشان الشرف ووساما من الدرجة الثالثة » [٢] وقد خاض البارودى حرب البلقان وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره ، وانفعلت نفسه بكثير من وقائعها الحربية ، بما فيها من مقاتلين من جنسيات مختلفة ، وفرسان وأسلحة ، وطبيعة جغرافية جبلية لمنطقة البلقان ، حيث تعد « بصفة عامة أرضا وعرة تغطيها الجبال ، أما الاراضى المنخفضة بها فقليلة ، ويهب عليها فى الشتاء الهواء البارد الجاف قادما من شمالها الشرقى ، حيث روسيا وآسيا الغربية » [٣] فضلا عن أماكن القتال ، ومسارح العمليات الحربية ومناظرها المتعددة. وصدر البارودى عن هذا كله فى تجارب شعرية ذاتية عبر عنها بصدق ، والتحمت فيها نفسية الفارس المقاتل ، بأحاسيس الشاعر الوصاف .

وكان البارودى مع الفرق المصرية التى توغلت داخل حدود روسيا ، وأقامت معسكراتها فى مقاطعة أوكرانيا الروسية – شمال بلغاريا وشرق رومانيا – فى منطقة تسمى « سرنسوف » وتقع على أحد روافد نهر « دنيبر »[٤] غرب شبه جزيرة القرم . وتعد هذه المنطقة امتدادا طبيعيا لمنطقة البلقان . وهنا لابد أن يستولى العجب على المرء وهو يتأمل ذلك البعد المكانى لكل من أوكرانيا والبلقان عن مصر ، فإذا كانت السفن المصرية التى حملت الجيش المصرى الى هذه المواقع ، وقد اخترقت البحر المتوسط من الإسكندرية ، ثم إتجهت شمالا لتعبر بحر إيجه ، ثم مضيق الدردنيل ، ثم بحر مرمره ، ثم مضيق البوسفور ، ثم عبرت البحر الأسود الذى كان يعج بالأساطيل الأوروبية ، فهذا يوضح قوة الحملة المصرية بعتادها وجنودها ، ويوضح مشاق السفر ، ومصاعب القتال والعمليات الحربية التى واجهت الجيش المصرى ، فى قتاله للروس فى هذه المناطق البعيدة .

---

(١) يوسف أصاف / تاريخ سلاطين آل عثمان / جـ ٢ / مرجع سبق ذكره / ١٦٥ . وراجع : هـ. أ. ل. فشر / تاريخ أوروبا فى العصر الحديث / مرجع سبق ذكره / ٣٧١ .

(٢) انظر د. شوقى ضيف / البارودى رائد الشعر الحديث / ٦٤ . وراجع : عمر الدسوقى / محمود سامى البارودى / دار المعارف بمصر ١٩٥٨ / ٢٤ .

(٣) - Francis P. Hankins & David G. Armstrong, World Geography, People and places, Bell & Howell Co. U. S. A, 1984, pp. 303 - 305 .

(٤) انظر : عمر الدسوقى / محمود سامى البارودى / مرجع سبق ذكره / ٢٤ .

ولو أخذنا بما ذكرته المراجع التاريخية من أن الجيش المصرى قد أنزل – أولا – بوارنه [٣] ببلغاريا على شاطىء البحر الأسود ، فلا شك أيضا أن القوات المصرية قد خاضت قتالا عنيفا فى هذه المواقع ، ضد الروس والصرب ، واكتسبت منهم أماكن – بعد أن دحرتهم عنها – ثم واصلت زحفها شمالا لتطارد فلول الجيش الروسى – وكان كثير العدد قوى التسليح – فى أوكرانيا الروسية . فكل هذا لابد أن يعطى دلالات مختلفة عن شراسة القتال وعنفه ، الذى خاضته القوات المصرية ضد الجيش الروسى ، فى مساحات واسعة من أراضى روسيا والبلقان . ولا شك أن قصائد البارودى التى تصف القتال والمعارك الحربية فى تلك الأماكن ، تفيد دارس الأدب والتاريخ معا .

وفى هذه القصيدة يصف البارودى أرض المعركة ، وطبيعتها الجغرافية ، حيث تنتشر الثلوج فوق المرتفعات والهضاب والسهول ، ويكسو الجليد قمم الجبال ، ويحشد جنود البلغار والروم والتاتار الروس . ويشعر الشاعر بالغربة ، بينما تثقل مشاعره الحسرة ، وتضغط على أعصابه المرهفة ، لوجوده فى هذه البلاد النائية التى أبعدته عن مصر ، وألقت به فى « سرنسوف » حيث جحيم القتال وسعيره . وتتفتح حاسة السمع لدى البارودى فتلتقط آذنه أدق الأصوات ، وينصت لأصوات الجنود من جيش الأعداء ، وهم يتحدثون – فى خشونة وغلظة – بلغاتهم الأعجمية ، ويصف قبح وجوههم ، ودمامة أشكالهم ، ولا يرى فيهم شيئا يميز ملامحهم وقسماتهم ، كأنهم ليسوا من أبناء آدم ، وكأن عيونهم وخدودهم قد ركبت فى أجسام وصور غريبة . وهم فى صياحهم يسمعون كأنهم العجول حين تخور ، وإذا نطقوا كان نطقهم قبيحا . وتستبد بالبارودى مشاعر الغربة فى هذه المواقع الغريبة ، ويتمنى أن يجد بينهم من يشاركه غربته ويبادله الأحاديث ، لعله يخفف مما يثقل مشاعره . إن الإحساس بالغربة هنا قد أذاب فى نفسية البارودى حد العداوة ، فهو يتمنى أن يجد فتى من أعدائه ، يبادله الحديث والكلام . ويصل بالشاعر اليأس الى إدراكه عدم استفادته من هذه الغربة شيئا ، بل يدرك أن وجوده فى هذه الأماكن – وبين هؤلاء العجم – ليس بذى فائدة تذكر . إن البارودى يعبر بهذا عن يأسه ، وعن رغبته فى تبدل حالته النفسية ، لهذا يتمنى أن يعود الى مصر وطنه ، وأن تعود اليه أيامه الماضية الهانئة بمصر ، ويتمنى من الله أن يعود قريبا الى أسرته التى فارقها ، وحينئذ سيفرح بها ، ويسعد أطفاله بعودته ، وقد كان البارودى صادقا فى تسجيل مشاعره ، أمينا فى إحساسه بالغربة وهو فى أرض غريبة :

(١) راجع : إسماعيل سرهنك / حقائق الأخبار عن دول البحار / مرجع سبق ذكره / ٣٥٢ – ٣٥٣ .

فمن لغريب « سَرْنَسوفٍ » مَقامُه ... رَمَتْ شَمْلَهُ الأيّامُ فهو لَهيدُ (١)
بِلادٌ بها ما بالجحيم وإنّما ... مكانَ اللَّظى ثَلْجٌ بِها وجليدُ
تَجمَّعَتِ البُلْغارُ والرُّومُ بَيْنَها ... وزاحَهَا التاتارُ فهى حُشُودُ
إذا رَطَنُوا بعضا سَمِعْتَ لصوتِهم ... هَديداً تكادُ الأرْضُ منه تَميدُ (٢)
قباحُ النَّواصِى والوجوه كأنّهم ... لغيرِ أبى هذا الأنام جُنُودُ
سواسيةٌ ليسوا بِنَسْل قبيلةٍ ... فَتُعْرَفُ آباءٌ لهم وخُدود
لهم صُوَرٌ ليست وُجوهًا وإنما ... تُنَاطُ إليها أعْيُنٌ وخُدود
يخورُون حولى كالعُجولِ وبعضُهم ... يُهَجِّنُ لَحْنَ القَوْلِ حينَ يُجِيدُ (٣)
أدورُ بعينى لا أرى بينهم فَتًى ... يَرُودُ معى فى القول حيث أرُودُ (٤)
فلا أنا منهم مستفيدٌ غريبةً ... ولا أنا فيهم ما أقمْتُ مُفيدُ
فمن لى بأيام مَضَتْ قبل هَذِهِ ... بمصرَ ؟ وعيشى ولو يدومُ حَميدُ
عسى اللّه يقضى قُربةً بعد غُرْبةٍ ... فيفرَحُ باللّقيا أبٌ وَوَليدُ (٥)

وفى القصيدة التالية يبدو أن البارودى قد أحس بطول غربته فى تلك البلاد ، ومن هنا راح الحنين الى مصر يبرح به ويعاوده ويراوده ، وأخذ الشاعر يصف بدقة أرض المعركة وطبيعتها الجغرافية ، وما بها من فيالق الجيوش المختلفة المتحاربة ، من مشاة ومدفعية وفرسان بينما يقف جنوده الشجعان على أهبة الإستعداد لخوض القتال . ويصف البارودى مشاعره أثناء المعركة حينما إشتد القتال ، وإستبد الخوف من الموت بالنفوس . وفى بداية القصيدة يعبر البارودى عن إحساسه ببعده عن وطنه ، وهذا

---

(١) لهده الحمل لهدا : أثقله وضغطه ، فهو ملهود ولهيد . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٨٤١ .

(٢) رطن الأعجمى رطانة : تكلم بلغته . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ١ / ٣٥٢ .
الهديد : دوى الصوت . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٩٧٦ .

(٣) هجن الكلام وغيره : صار معيبا مرذولا ، وهجن الشىء : جعله هجينا ، و – الأمر قبحه وعابه . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٩٧٤ .

(٤) راد الشىء رودا وريادة : طلبه . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ١ / ٣٨١ .

(٥) ديوان البارودى / ضبطه وصححه وشرحه : على الجارم ومحمد شفيق معروف / مطبعة دار الكتب المصرية / جـ ١ / سنة ١٩٤٠ / ١٧٤ – ١٧٦ .

الإحساس يلازمه ولا يفارقه أينما بعد عن مصر ، فقد طوحت به الصروف فى هذه الأرض الغريبة الوعرة ، ذات المساحات الشاسعة المقفرة ، كأنها الصحراء المهلكة يكاد يضل بها طير القطا ، الذى لا يكاد يضل أبدا فى مواطنه . بل تكاد الجن ترهبها وهى منطلقة غير مكبلة . وفى هذه الأرض المقفرة البعيدة لا ترى العين نهاية لها . وينصت البارودى الى صدى الأصوات المترددة فى هذه القفار عند انسدال الليل بظلامه ، وقد راحت الجبال ترجع هذه الأصوات ، فتبدو للسامع كأنها صياح نساء ثكالى ، تنوح على فقد وليدها . وترتفع الجبال العالية فى هذه البلاد وقد غطتها السحب الداكنة ، فتبدو كأنها ترتدى فراء حيوان السمور . وحينما تنهمر الأمطار فوق الجبال ، تنطلق سيولا هائجة على المنحدرات وفى الأودية حتى تغمرها . وقد إتخذت الطيور الجارحة وكناتها وملاجئها فوق قممها الشاهقة ، وسرحت الذئاب فى سهولها ، متربصة بفرائسها . ويتعجب البارودى من الأقدار التى قذفت به فى هذه الأرض ، فكاد ينسى أصدقاءه وخلانه ، فليس هناك ما يشغله عنهم سوى صون نفسه من الهلاك ، وما فى هذه الأقطار من أهوال تهلك الأبطال الذين يطلبون العلا فى ساحات القتال :

لَعَمْرِى لقد طالَ النّوى وتقاذَفَتْ ... مَهامُهُ دُونُ المُلْتَقَى ومَطاوِحُ (١)

وأصبحْتُ فى أرض يَحَارُ بها القَطَا ... وتَرْهَبُها الجِنَّانُ وهْى سَوارِحُ (٢)

بعيدةُ أقطارِ الدياميمِ لو عَدَا ... سُلَيْكٌ بها شأواً قَضَى وهْوَ رازِحُ (٣)

تَصيحُ بها الأصْداءُ فى غَسَقِ الدُّجى ... صِياحَ الثّكالى هَيَّجَتْها النّوائِحُ

تردّتْ بسمّورِ الغَمامِ جِبالُها ... وماجَتْ بتيّارِ السّيولِ البَطائِحُ (٤)

---

(١) المهامة : جمع مهمه وهى المفازة البعيدة والبلد المقفر . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٨٩٠ ، المطاوح : جمع المطاح ، اسم مكان من طاح ، وهو المسلك .

(٢) الوعر المهلك . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٥٦٩ .

- القطا : جمع القطاة وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء ، ويتخذ أعشاشه فى الأرض ويطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة ، وبيضه مرقط . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٧٤٨ . وتوصف القطا بالهداية ، والعرب تضرب بها المثل فى ذلك لأنها تبيض فى القفر ، وتسقى أولادها من البعد فى الليل والنهار . الدميرى / حياة الحيوان / كتاب الجمهورية / جـ ٧ ب . ت / ١٠٩٥ .

(٣) الدياميم : دومت السماء : أمطرت . والديمة : المطر يطول زمانه فى سكون ، (ج) ديم . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ١ / ٣٠٥ . سليك : بن يثربى بن سنان بن سلكة : لص فتاك عداء ، يضرب به المثل فى العدو ، قيل كان يطلب الخيل فيدركها ، وتطلبه هى فلا تدركه . ديوان البارودى / جـ ١ / ١١١ / هامش ١ لشارح الديوان .

(٤) السمور : حيوان ثديى ليلى من الفصيلة السمورية من أكلات اللحوم ، يتخذ من جلده فرو ثمين ويقطن شمالى آسية . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٤٤٨ . البطائح : الأبطح : المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٦١ .

فَـأَنْجَـادُهـا لـلـكـاسِـراتِ مَـعَـاقِـلٌ وأغـوارُهـا لـلـعـاسِـلاتِ مَـسَـارِحُ (١)
مَـهـالِـكُ يـنْسَى المْرءُ فـيـهـا خـلـيـلَهُ ويُـنـذِرُ عـن سَـوْمِ الـعُـلا مـن يُـنَـافِـحُ (٢)

وبعد أن وصف البارودى أرض المعركة وطبيعتها الجغرافية ، من جبال وقفار وسهول، ووديان وحيوانات وطيور ، وأمطار وسيول ، وسحب وغمام ، راح يصور لنا الإستعداد للمعركة والقوات المشاركة فيها ، وقد وقف الفرسان الشجعان فى ساحة الحرب ، برماحهم الصلبة وسيوفهم الحادة القاطعة ، يمتطون خيولهم وجيادهم الكريمة . وعند انبلاج الفجر يقف هو وجنوده يترقبون شن غارتهم على الأعداء ، وقد إمتلأت نفس القائد وجنوده ثقة بالنصر على أعدائهم ، فهم كالأسود تتربص فى قوة بفرائسها وصيدها . وها قد نصبت المدافع تجاه مواقع الأعداء من الروس والصرب ، واستعدت خلف المدافع جنود المشاة ، ثم فرق الفرسان التى يقودها البارودى وتأهبت خلف هذه الفرق الثلاث – المدفعية والمشاة والفرسان – مؤخرة الجيش ، لتمنع تسلل قوات العدو ، وإن جنود هذه الفرق الثلاث لمن الشجاعة والقوة والإقدام بحيث تقتحم مواقع القتال ، بينما الموت يتربص بها . وينشب القتال ، وتشتعل غارات الجيش المصرى على مواقع الأعداء منذ إشراقة الصباح ، وتظل حتى إقبال الليل بظلامه ، وحينئذ يأوى البارودى وجنوده الى الأدغال ، يتشاورون فى سير المعركة ونتائجها :

فـلا جَـوَّ إلا سَـمْـهَـرِيٌ وقـاضـبٌ ولا أرْضَ إلاَّ شَـمْـرِيٌ وسـابِـحُ (٣)
تَـرانـا بـهـا كـالأُسْـدِ نَرْصُـدُ غـارَةً يـطـيـرُ بـهـا فَـتْـقٌ مـن الـصُّـبْـحِ لامِـحُ

(١) الكاسرات : يقال باز كاسر وعقاب كاسر . مجمع اللغة العربية / المعجم الوسيط جـ ٢ / ٧٨٧ .
– العاسلات : عسل الذئب والفرس : عدا واهتز فى عدوه . والعاسل : الذئب . (ج) عسل وعواسل وعسلان . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٦٠١ .

(٢) ندر الشىء ندورا : سقط . ندر فلان فى علم وفضل : تقدم وقل وجود نظيره . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٩١٠ . نافح : عنه : دافع . و – فلانا : كافحه . نفح الشىء : دفعه عنه . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٩٣٨ .

(٣) السمهرى : الرمح الصليب العود . يقال هو منسوب الى « سمهر » : رجل كان يقوم الرماح وأمرته « ردينة » التى ينسب اليها الرماح . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٤٥٢ .
قاضب : قضبه قضبا : قطعه . والقضاب من السيوف : القطاع ، ومن الرجال : القطاع للأمور المقتدر عليها . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٧٤١ . شمرى : شمرت الحرب : اشتدت ، والشمرى الأشد مضاء فى الأمر . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٤٩١ . سابح : السوابح : الخيل (صفة غالبة) المعجم الوسيط / ج ١ / ٤١٢ .

مَـدافِـعُنا نُصْبَ العِـدا ومَـشـاتُنَا ... قِـيـامٌ تُليـهـا الـصـافِـنـاتُ الـقـوارِحُ (١)

ثـلاثُـة أصـنـافٍ تَـقِـيـهِـنَّ سـاقَـةٌ ... صِـيـالَ الـعِدا إنْ صَـاحَ بـالشَّـر صـائِحُ (٢)

فـلـسـت تَـرى إلا كُـمـاةً بـواسِـلاً ... وُجُـرداً تـخـوضُ المـوْتَ وهـي ضَـوابِحُ (٣)

نُـغِـيـرُ عـلى الأبـطـالِ والـصُّـبْحُ بـاسِـمٌ ... ونـاوِي الـى الأدغـالِ والـلـيـلُ جـانِـحُ

والواقع أن البارودى كان دقيقا فى وصفه لأرض المعركة ، حتى وإن غفلت شاعريته وصفها وكذلك كان دقيقا فى وصفه لفرق الجيش المصرى بأسلحتها المختلفة ، وتحديده زمن القتال الذى بدأ مع أول ضوء للصباح ، وانتهى مع اقتراب الغروب . وكذلك فى وصفه لشجاعة الجنود المصريين وبسالتهم وثباتهم فى اقتحام هذه المعركة القوية . وينطبق وصف هذه المعركة – كما رآها البارودى وشارك فيها – بعينى الفارس الشاعر – مع وصف بعض المراجع التاريخية لأمثالها مما وقع فى حرب البلقان . يقول « اسماعيل سرهنك » وكان ياورا حربيا لقاسم باشا – قائد الأسطول المصرى الذى نقل الحملة المصرية الى وارنة – كما شارك فى حرب البلقان :

« وصار امتداد المحاربة بشدة من الساعة الخامسة الى الساعة العاشرة ، ولكن للثبات والشجاعة التى أظهرتها عساكرنا ، اضطر العدو للتقهقر ، بعد ما قتل من عساكره قدر أربعمائة نفر ، وجرح ثمانمائة ، وقد عادت عساكرنا الى مراكزها ، ولو أنه حضر أثناء ذلك اثنا عشر طابورا بيادة واثنا عشرمدافعا لإمداد العدو ، لكن لم تحصل محاربة نظرا لإقتراب الغروب » (٤) .

كان القتال شديدا فى هذه المعركة ، وراح الجنود يتساقطون قتلى وجرحى فى ساحة القتال ، بين قصف المدافع وانفجار القذائف ، وصياح الجرحى ، وصهيل الخيل وصوت أنفاسها وهى تنطلق وتجرى ، بينما يعلو الغبار أرض المعركة وسماءها ، وينعقد سحبا

---

(١) الصافن من الخيل : ما قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة ، أو ما يفعل ذلك وقت سكونه أو هو القائم منها مطلقا . (ج) صافنات . راجع المعجم الوسيط / جـ ١ / ٥١٧ . وراجع محمد اسماعيل ابراهيم / معجم الألفاظ والأعلام القرآنية / مرجع سبق ذكره / ٢٩٢ .

(٢) الساقة من الجيش : مؤخره . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٤٦٤ . صيال لعدا : صال عليه صولا وصولانا : سطا عليه ليقهره . صاولة وصيالا وصيالة : غالبه ونافسه فى الصول . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٥٢٩ .

(٣) ضوابح : صبحت الخيل : صوتت أنفاسها فى جوفها حين العدو . وفى التنزيل العزيزة : (والعاديات ضبحا) العاديات / ١ . المعجم الوسيط / جـ ١ /٥٣٣ .

(٤) اسماعيل سرهنك / حقائق الأخبار عن دول البحار / مرجع سبق ذكره / ٣٥٢ – ٣٥٣ هامش ١ .

تمطر بالموت ، وكل هذا كفيل ببث الرعب فى النفوس ، والبكاء خوفا من الموت . وهنا يجرى البارودى حوارا وصفيا بينه وبين صاحب له - ربما يكون من رفاقه فى هذه المعركة ، وربما يكون من صنع خياله - فقد بكى صاحبه عند اشتداد القتال ، ظنا منه أن البارودى سيهلك فى هذه المعركة . وهنا راح يزجى للبارودى النصائح ، ويحثه على التمهل فى قتاله ، وعدم التسرع فى اقتحام مواقع الأعداء ، التى انعقدت فوقها سحب دخان الحرب وغبارها ، وراحت تصب الموت فوق مواقعهم وأخذ صاحبه يهيب به أن يبتعد عن الأخطار التى أحدقت به ، حتى لا يصيبه أذى من أعدائه ، وقد عرفوا مكانته ورتبته وشجاعته . ويرد البارودى على نصائح صاحبه بأنه لا يستطيع أن يتخلى عن جرأته واقدامه ، لأنهما عنوان شجاعته ومجده ، وإن الموت الذى يتربص به فى القتال ، لا مفر من ملاقاته ، ومع هذا فالموت لا يخطىء الجبان ولو كان قابعا فى وسط داره ، وينجو منه المقاتل الشجاع ، ومهما حاول الإنسان الهرب من الموت ، أو الفرار من أسبابه ، فسيلقاه الموت يوما ما . ولا يدرى البارودى ماذا سيكون مصيره فى هذه الحرب لكنه يختم القصيدة بكلمة المؤمن الواثق بقضاء الله ، فالإنسان لن يلقى إلا ما قدره الله له ، إن خيرا وإن شرا ، وإنه لو عاش - بعد إنتهاء الحرب - فسيخلد الدهر شجاعته ويرفع منزلته ، ولو مات فى ميدان القتال ، فهذا أكرم مصير يلقاه المحارب الشجاع :

بكى صاحبى لما رأى الحربَ أقبلَتْ ... بأبنائها واليومُ أغبَرُ كالحُ

ولم يكُ مبكاهُ لخوفٍ وإنما ... توهَّمَ أنى فى الكريهةِ طائحُ

فقال : أتئِد قبل الصِّيالِ ولا تكُنْ ... لنفسك حربا إننى لك ناصحُ

ألم تَرَ معقودَ الدُّخانِ كأنما ... على عاتقِ الجوزاءِ منه سَرائحُ (١)

وقد نشأت للحربِ مُزنَةُ قُسطلٍ ... لها مُستهلٌّ بالمنيَّةِ راشحُ (٢)

فلا رأىَ إلا أن تكونَ بِنَجْوةٍ ... فإنك مقصودُ المكانةِ واضحُ

---

(١) سرائح : مفرد سريحة ، وهى كل قطعة من خرقة ممزقة ، ودم سائل مستطيل يابس . معجم اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ١ / ٤٢٦ .

(٢) مزنة قسطل : المزن : السحاب يحمل الماء . وفى التنزيل العزيز ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ الواقعة / ٦٩ . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٨٦٧. القسطل : الغبار فى الموقعة . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٧٣٤ . مستهل : انهلت السماء : نزل مطرها . والأهاليل : الأمطار . معجم اللغة العربية / المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٩٩٢ .

فقلت : تَعَلَّمْ إنما هى خُطَّةٌ ... يطولُ بها مَجْدٌ وتُخشَى فضائحُ
فما كل ما ترجو من الأمر ناجحٌ ... ولا كُل ما تَخْشى من الخَطْبِ فادِحُ
فقد يَهْلِكُ الرَّعْديدُ فى عُقْرِ دارِهِ ... وينجو من الحَتْفِ الكَمِىّ المُشايحُ (١)
وكل امرِىءٍ يوما مُلاقٍ حِمَامَهُ ... وإن عَارَ فى أرْسانِهِ وهَو جامِحُ (٢)
فما بارِحٌ إلا مع الخيرِ سانحٌ ... ولا سانِحٌ إلا مع الشُّرِ بارِحُ
فإنْ عِشتَ صافحتَ الثُّريّا وإنْ أمُتْ ... فإنَّ كريمًا ما تضمُّ الصفائحُ (٣)

وترتفع شاعرية البارودى فى وصف الحرب وميدان القتال ، وتكشف مشاعر الفارس المقاتل لتبلغ حدا رائعا فى القصيدة التالية ، وهو تصور معركة نشبت بين الجيش المصرى وبين الجيش الروسى فى حرب البلقان . فقد وقف القائد الفارس يتفقد ساحة المعركة ، حيث استعدت لها قواته وجنوده ، وراح يدور بعينيه يتفحص – بنظرة القائد المحنك – مواقع أعدائه من الروس فى والبلقان ، الذين انتشروا بأسلحتهم فوق رؤوس الجبال وقممها العالية ، وفى أعداد كبيرة لا يمكن أن تحصى ، وقد راحوا يستعدون أيضا لشن غارتهم على القوات المصرية ، وينتظرون إشارة قائدهم حينما يسفر الصبح عن وجهه ، ليكشف مواقع الفريقين المتقاتلين . وتنشب المعركة ، ويندفع فرسان البارودى وجنوده الأبطال الى مواقع الأعداء فى شجاعة لا تبالى بالموت ، ولا تلتفت إلا الى الأخطار المحدقة بهم من كل جانب . ويندفع الجنود وقوادهم يخوضون نيران المعركة التى استعرت وحمى وطيسها ، وإن البطل الشجاع ليوشك أن يهرب من هذه المعركة لشدتها وقوتها ، ولكن شجاعة جنود البارودى تجلت فى قتالهم الأعداء ، الذين سالت دماؤهم على الأرض كأنها الجداول الجارية ، من كثرة أعداد القتلى منهم . بينما انعقدت فوقهم سحب كثيفة مغبرة

---

(١) الرعديد : الجبان يرتعد ويضطرب عند القتال جبنا . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٣٥٣ . الكمى : لابس السلاح ، والشجاع المقدام الجرىء ، كان عليه سلاح أو لم يكن . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٧٩٩ . المشايح : شاح فى الأمر شيحا : جد ، وشاح على حاجته : حرص . الشائح : الغيور والحذر . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٥٠٢ . ورجل مشايح ومشيح وشيح : جاد حذر . الزمخشرى : / أساس البلاغة / تحقيق عبد الرحيم محمود / دار المعرفة لبنان ١٩٨٢ / ٢٤٥ .

(٢) عار : عيرا وعيرانا : ذهب وجاء مترددا . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٦٣٩ . الأرسان : الرسن ما كان من الأزمة على الأنف . (ج) أرسان وأرسن . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٣٤٥ .

(٥) ديوان البارودى / جـ ١ / ١١٠ – ١١٤ .

من تراب أرض المعركة ، ودخان المدافع . وتبد حركة الجيوش المتحاربة وهى تقتحم مواقع الفريق الآخر ، أو تتراجع عنه ، كأنها موجات المد والجزر فى البحار ، تنحصر مرة ، وترتفع مرة أخرى :

أَدورُ بِعَيْنى لا أرى غَيْرَ أُمَّةٍ ... من الروسِ بالبَلْقانِ يُخْطِئُها العَدُّ
جَواثٍ على هام الجِبالِ لغارة ... يطيرُ بها ضوْءُ الصباحِ اذا يَبْدُو
إذا نحن سِرْنا صَرَّح الشَّرُّ باسْمِهِ ... وصاحَ القنا بالموت واستقلَ الجُنْدُ
فأنت ترى بين الفريقين كَبَّةً ... يُحَدِّثُ فيها نفْسَه البَطَلُ الجَعْدُ (١)
على الأرضِ منها بالدماءِ جداولٌ ... وفوق سَراةِ النَّجْمِ من نَقْعِها لِبْدُ (٢)
إذا اشتبكوا أو راجَعُوا الزحْفَ خِلْتَهُم ... بُحورا توالى بينَها الجَزْرُ والمَدُّ

وأظهرت المعركة قوة الجنود المصريين وبأسهم ، حيث بطشوا بالأعداء ومزقوا تجمعاتهم وفرقوا هجماتهم العنيفة ، فتبعثرت فلولهم ، بين قتلى مطرحين على الأرض ، وجرحى متعبين وأسرى مقيدين ، وهاربين ولوا فرارا . وحينما انسدل الليل بظلامه سكنت نيران المدافع ، وسكنت هجمات الجنود ، وراح القادة يتشاورون فى نتائج المعركة ، ويستعدون لمعركة اليوم التالى ، التى تبدأ - عادة - مع أول ضوء للنهار ، وفيها يكون الموت رفيقهم وحليفهم ضد أعدائهم :

نَشُلُّهُم شَلَّ العِطاشِ ونَتْ بِها ... مُراغَمَةُ السَّقيا وماطَلَها الوِرْدُ
فَهُمْ بين مقتولٍ طريحٍ وهاربٍ ... طليحٍ ومأسورٍ يُجاذِبُه القَدُّ (٣)
نَرُوحُ الى الشورَى اذا أقْبَلَ الدُّجى ... ونَغْدُو عليهم بالمنايا إذا نَغْدُو (٤)

(١) الكبة : بضم الكاف وفتحها : الجماعة من الناس وغيرهم ، والدفعة فى القتال والجرى ، المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٧٧٢ . الجعد : الغليظ ، ورجل جعد اليدين : كريم وجعد القفا : لئيم الحسب ، وأبو جعدة ، وأبو جعادة : كنية الذئب . الفيروزآبادى / القاموس المحيط / جـ ١ / الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ / ٢٨١ .

(٢) النقع : الغبار الساطع . (ج) نقاع ونقوع . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٩٤٨ . اللبد : كل شعر أو صوف متلبد . (ج) الباد ولبود . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٨١٢ .

(٣) شل الدابة شلا : طردها وساقها . شل الصباح الظلام : غلبه . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٤٩٢ . الورد : الإشراف على الماء وغيره ، دخله أو لم يدخله ، والماء الذى يورد ، والقوم يردون الماء . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ١٠٢٤ .

(٤) طليح : طلح طلحا وطلاحا : تعب من السير ونحوه . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٥٦١ . القد : السير يقد

ويتحدث البارودى عن شجاعته فى إقتحام مواقع الأعداء ، وقد انعقدت فوقها سحب من الغبار الكثيف – كأنها البحر العميق – وهذا الغبار أثارته سنابك الخيل ، وحركات الجنود المتحاربة فى اندفاعها ، واقتحامها للمواقع ، أو فى تقهقرها . وان البارودى ليُقتحم أرض المعركة ، فوق فرسه السباق ، وفى يده سيفه ، وراحت الدماء تسيل من القتلى ، والدخان يرتفع مع الغبار . وقد أثارت هذه الحرب شجاعة البارودى ، وهيجت جرأته ، فأصبح كالأسد الجائع ، قد نهض يتصيد فريسته ، وكالسيف الذى خرج من غمده ليقطع رقاب الأعداء . وراح البارودى القائد يصول فى أرض المعركة ويجول ، بينما حل التعب والإرهاق بالأبطال وأخذ يضرب أعداءه ويقاتلهم ، وهو يكاد يسمع ضربات قلوبهم من شدة الخوف والإضطراب فى هذا القتال الشديد ، ولم يقابله عدو الا وطعنه البارودى برمحه فى قلبه ، أو ضربه بسيفه فى عنقه :

ونَقْعٍ كَلَّجَّ البحْرِ خُضْتُ غِمَارَهُ ... ولا مَعْقِلٌ إلا المناضلُ والجُرْدُ (١)

صَبَرْتُ له والموتُ يَحْمَرُّ تارةً ... ويَنغَلُّ طورٍ فى العَجَاجِ فَيَسْوَدُّ (٢)

فما كنْتُ إلا الليثُ أنهضَهُ الطَّوى ... وما كنت إلا السيفَ فارقَهُ الغِمْدُ

صؤولٌ وللأبطالِ هَمْسٌ من الوَنَى ... ضَرُوبٌ وقلْبُ القِرْنِ فى صدرِه يَعْدُو (٣)

فما مُهْجَةٌ إلا ورُمحِي ضميرُها ... ولا لَبَّةٌ إلا وسيفى لها عِقْدُ (٤)

وهكذا نرى أن البارودى قد كشف لنا فى هذه التجارب الذاتية عن دنياه الخاصة ، وعالمه الواقعى والنفسى ، حيث تعرفنا على أحاسيسه الفنية الصادقة ، ومشاعره الفياضة ، وشاهدنا نفسه على حقيقتها – دون زيف – وهى تتألم فى أتون القتال والمعارك الحربية لبعدها عن مصر . وكشف لنا البارودى عن مشاعره المخبوءة فى ثنايا أعماقه وهو

(١) المناصل : جمع المنصل : السيف . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٩٢٧ . الجرد : فرس أجرد : سباق . (ج) أجارد . ومن المجاز : جرد السيف من غمده . وسيف أجرد ، كقولهم : سيف عريان . الزمخشرى / أساس البلاغة / معجم سبق ذكره / ٥٥ .

(٢) ينغل فى الشىء : يدخل فيه . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٦٦٠ . العجاج : الغبار والدخان . المعجم الوسيط / جـ ٢ / ٥٨٤ .

(٣) الصؤول : الشديد الصول . والصولة : السطوة فى الحرب ونحوها . ويقال : هو ذو صولة : مقدام . المعجم الوسيط / جـ ١ / ٥٢٩ .

(٤) ديوان البارودى / جـ ١ / من ١٦٨ الى ١٧٠ .

يخوض القتال فى حرب كريت ، حزينا لما فعله به الوشاة ،فألقى به فى حرب لم يكن يسعى اليها .

أما فى قصائده عن حرب البلقان ، فقد اندمج العالم الواقعى للفارس المقاتل ، بالعالم النفسى للشاعر الفنان ، فاذا به يلون لنا لوحة حافلة بالمعارك الحية ، والقتال الدامى والمشاعر المتضاربة . وفى كل هذا وذاك ، كان البارودى مخلصا لشعره ، فإتخذه فنا جميلا للتعبير عن نفسه ومشاعره ، يقول جميل بليغ ، هدفه التأثير فى نفوس المتذوقين ، وامتلاك عقولهم وأفئدتهم

000